فرش كتاب الفريدة في الحروب

قال أبـو عمر أحمدُ بنُ محمد بن عبد ربِّه رحمه الله: قد مضى قولُنا في السلطان وتَعظِيمه، وما على الرعية من لزوم طاعته، وإدامة نصيحته؛ وما على السلطان من العَدلْ في رعيّته، والرفق بأهل مملكته.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومَدار أمرها، وقَود الجُيوش وتدبيرها، وما على المُدبِّر لها من إعمال الخُدعة، وانتهاز الفرصة، والتماس الغِرّة وإذكاء العيون، وإفشـاء الـطلائـع، واجتنـاب المَضـايق، والتحفُّظ من البَيات. هذا بعـد معرفة أحكامها، وإحكام معرفتها، وطول تجربته لها ولمقاساة الحروب ومُعاناة الجيوش، وعِلمـه أن لا دِرع كالصـبر ولا حِصن كاليقـين. ثم نذكر كرمَ الإقدام، ومحمود عاقبته، ولُؤمَ الفرار، ومُذموم مَغّبته. والله المُعين.

صفـة الحــروب

الحربُ رَحى ثِفالها[1] الصَّبْر، وقُطْبها المَكْر، ومَدارها الاجتهاد، وثقافها الأناة، وزمامها الحَذر. ولكل شيء من هذه ثمرة، فثَمرة الصبر التأييد، وثمرة المكر الظفَر، وثمـرة الاجتهـاد التوفيق، وثمرة الأناة اليُمن، وثمرة الحَذر السلامة. ولكل مَقام مقال، ولكل زمان رجال، والحرب بين الناس سجال، والرأي فيها أبلغ من القتال.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو بن معْد يكرب: صِفْ لنا الحرب، قال: مُرة المَذاق، إذا كشفت عن ساق، من صَبر فيها عُرِف، ومن نكَل عنها تَلِف، ثم أنشأ يقول:

الحَـرْب أول ما تكـونُ فَتـيـة ... تسـعى بزيـنـتـهـا لكـل جَهُـولِ
حتـى إذا حَمِيـت وشَـب ضِرَامـهـا ... عادت عجـوزًا غير ذات حَلِيْـل

---

(١) الثفال «ككتاب»: جلد أو نحوه يوضع تحت الرحى يقع عليه الدقيق.

شمطاء جزَّت رأسها وتنكَّرت مَكْروهة للشَّمّ والتَّقبيل[1]

وقيل لعَنترة الفوارس: صِفْ لنا الحرب. فقال: أوّلها شَكوى، وأوسْطها نَجوى، وآخرها بَلْوَى!.

وقال الكُمَيت:

والناسُ في الحَرب شتّى وهي مُقبلة ويَستوون إذا ما أدبَر القُبُلُ
كلّ بأمسيِّها طَبٌّ مولِيَةً والعالمون بذي غُدويِّها قُلُل

وقال نَصر بن سيّار صاحبُ خراسان يصف الحرب ومُبتدا أمرها:

أرى خَلَل الرَّماد وميضَ جَمرٍ فيُوشك أن يكون له ضِرَامُ
فإن النّار بالعُودين تُذكَى وإنّ الحربَ أوّلها الكلام
فإن لم يُطفِها عقلاء قوم يكون وَقُودَها جُثث وهَام
فقلت من التعجّب ليت شعري أأيقاظ أُمَيّةُ أم نِيَام؟!

وفي حكمة سُليمان بن داود عليهما السلام: الشرّ حُلو أوّله: مرٌّ آخره.

والعرب تقول: الحرب غَشوم؛ لأنها تنال غيرَ الجاني.

وقال حَبيب:

والحرب تركب رأسها في مَشهد عُدِل السَّفيهُ به بألف حَلِيمَ
في ساعة لو أنَّ لقمانا بها وهوالحكيم لكان غير حكيم!

وقال أكثم بن صَيفيّ حكيم العرب: لا حِلم لمن لا سَفيه له.

ونحو هذا قول الأحنف بن قيس: ما قلّ سفهاءُ قومٍ قط إلا ذلّوا.

وقال: لأن يُطيعني سُفهاء قومي، أحبّ إليَّ من أن يُطيعني حلماؤهم.

وقال: أكرموا سفهاءَكم، فإنهم يَكفُونكم النارَ والعارَ.

وقال النابغة الجعدي:

ولا خيرَ في حِلم إذا لم تكُن له بَوادِرُ تَحمِي صَفوه أن يُكدَّرَا

وأنشد هذا الشعر للنبي ﷺ، فلما انتهى إلى هذا البيت، قال له النبي ﷺ: «لا

(١) انظر: ابن قتيبة المصدر السابق، جـ١، ص٢١٠.

يَفضض الله فاك». فعاش ثلاثين ومائة سنة لم تسقط له ثَنِيَّة[١].

وقال النابغة الذُّبياني يصف الحرب:

تَبـدو كواكبـه والشمسُ طالعـةٌ لا النـورُ نُور ولا الإظـلام إظـلامُ!

يريد بقوله:

* تبـدو كـواكبـه والشمـس طالعـة *

شدةَ الهول والكرب، كما تقول العامة: أريتُه النجوم وسط النهار.

قال الفرزدق:

أريك نجـومَ الليـل والشمـسُ حيّةٌ

وقال طَرفة بن العَبد:

وتُريـك النجـم يجـرى بالظُّهُـر

وإليه ذهب جرير في قوله:

والشمس طالعـة ليست بكـاسفةٍ تبكي عليـك نجـومَ الليـل والقَمَرا

يقول: الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل، لشدّة الغم والكرب الذي فيه الناس.

ومن قولنا في صفة الحرب:

ومُغْبَرٍّ الـسـماء إذا تجلى يغـادر أرضـه كالأرجـوان
سمـوت له سمـو الـنقـع فيـه بكـل مذلـق سلب[٢] الـسنـان
وكـل مشـطب[٣] المتنـين صاف كلون المـلح منـصـلت يماني

---

(١) أورده الحافظ بن حجر في الإصابة وقال: أخرجه البزار والحسن بن سفيان في مسنديهما وأبو نعيم في تاريخ أصبهان والشيرازي في الألقاب كلهم من رواية يعلى بن الأشدق قال؛ وهو ساقط الحديث. الإصابة جـ٣، ص٥٠٩، وانظر: المطالب العالية، ص ٤٠٦٥.

(٢) مذلق: محدد وسلب: طويل.

(٣) مشطب: فيه طرائق. ومنصلت: صقيل ماض.

كأن نهاره ظلماء ليل ... كواكبه من السمر اللدان[1]

وفي صفة المعترك :

ومُعترك تَهُزّ به المَنايا ... ذكورَ الهِند في أيدي ذكور
لوامع يُبصر الأعمَى سَناها ... ويَعمَى دونها طَرف البَصير
وخافقة الذرائب قد أنافَت ... على حَمراء ذاتِ شَباً طَرير
تُحوِّم حولها عُقبان موت ... تخطّفت القلوبَ من الصدور
بيوم راح في سِربال ليل ... فما عُرف الأصيل من البُكور
وعين الشمس تَرنُو في قَتام ... رُنُوّ البكر من بين السُّتور
فكم قَصّرتَ من عُمر طويل ... به وأطَلتَ من عُمرٍ قَصِير

العمل في الحروب

قيل لأكثم بن صَيفي : صِف لنا العمل في الحرب . قال : أقِلّوا الخِلاف على أمرائكم ، فلا جماعة لمن اختُلِف عليه . واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، فتثبّتوا ؛ فإن أحزم الفَريقين الرَّكين ، ورب عَجلة تُعقب ريثاً . وادّرعوا الليل ، فإنه أخفى للوَيل ، وتحفّظوا من البَيات .

وقال شَبيب الحَرُوريّ : الليلُ يكفيك الجَبان ونِصْفَ الشجاع .

وكان إذا أمسى يقول لأصحابه : أتاكم المَدد يعني الليل .

وقالت عائشة رضي الله عنها : المنازعة في الحرب خور ، والصياح فيها فشل .

وقال عتبة بن ربيعة لأصحابة يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله ﷺ : أما ترونهم خرساً لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الحيات .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : مَن أكثر النظر في العواقب ، لم يَشجُع .

وقال النُّعمان بن مُقَرِّن لأصحابه عند لِقاء العدوّ : إنّي هازٌّ لكم الراية ، فليُصلح

---

(١) السمر اللدان : الرماح اللينة .

كل رجل منكم من شَأنه، وليُشدَّ على نفسه وفرسه؛ ثم إني هازّها لكم الثانية، فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوّه، ومكان فُرصته ثم إنّي هازّها لكم الثالثة وحاملٌ، فاحملوا على اسم الله.

وفي النعمان بن مُقرِّن هذا يقول عُمر بن الخطّاب رضي الله عنه ـ إذ تكاملت عنده الحشُود وتطلّع الصحابةُ إلى التقدم عليها ـ: لأقلدنّ أعنّتها رجلا يكون عدّاء لأوّل أسَّنة يلقاها. فقلَّدها النعمانَ بن مُقرِّن.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا الفُرصة، فإنها تمر مَر السحاب، ولا تطلبوا أثرًا بعد عَين.

وقال بعضُ الحكماء: انتهز الفرصة، فإنها خُلسة؛ وثِب عند رأس الأمر، ولا تَثِب عند ذَنَبه. وإياك والعجز، فإنه أذلّ مركب؛ والشفيع المَهين، فإنه والله أضعف وسيلة.

وخرجت خارجة بخراسان على قُتيبة بن مسلم فأهمه ذلك، فقيل له: ما يُهمك منهم؟! وَجّه إليهم وكيع بن أبي سود؛ فإنه يَكفيكم. فقال: لا، إن وَكيعا رجل به كِبر، يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قَلَّت مُبالاته بأعدائه فلم يحترس منهم، فيَجِد عدوُّه غرة منه.

وسُئل بعضُ الملوك عن وثائق الحَزم في القتال فقال: مُخاتلة العدو عن الريف، وإعداد العُيون على الرصَد، وإعطاء المبالغين على الصدق، ومُعاقبة المتوصِّلين بالكذب، وألَّا تُحرج هاربا إلى قتال، ولا تُضيِّق أمانًا على مُستأمِن، ولا تشدهنَّك[1] الغنيمة عن المُحاذَرة.

وفي بعض كتب العجم: أن حكيمًا سُئِل عن أشدِّ الأمور تدريباً للجنود وشحذاً لها فقال: تعود القتال وكثرته وأن يكون لها مواد من ورائها.

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري ياأمير المؤمنين أشجاعٌ أنت أم جبان؟ فقال معاوية:

---

(١) لا تدهشنك: لا تدهشنك.

شُجاعٌ إذا ما أمكنتنِيَ فُرصة وإن لم تَكُن لي فُرصة فَجبَانُ

وقال الأحنف بن قيس: إن رأيتَ الشرَّ يتركُك إن تركته فاترُكه.

قال هُدبة العُذري[1]:

ولا أتمنَّى الشرَّ والشرُّ تاركي ولكن متى أحمل على الشرِّ أركب
ولست بمفراح إذا الدهرُ سَرني ولا جازعٍ من صَرفه المُتقلِّبَ

الصبر والإقدام في الحرب

جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب كلها في آيتين من كتابه فقال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾[2].

وتقول العرب: إن الشجاعة وقاية، والجُبنَ مَقتلة. واعتبر من ذلك، أن من يُقتل مُدبرًا أكثرُ ممن يُقتل مُقْبلاً؟

ولذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهبْ لك الحياة[3].

والعرب تقول: الشجاع مُوقًّى، والجبان مُلَقًّى.

وقال أعرابيّ: الله مُخلف ما أتلف الناس، والدهر مُتلف ما جمعوا؛ وكم من مَنيَّة عِلتها طلبُ الحياة، وحياةٍ سببها التعرضُ للموت[4].

وكان خالد بن الوليد يسير في الصفوف يُذَمر[5] الناس ويقول: يأهل الإسلام، إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر النَّصر[6].

---

(١) نسب هذا الشعر للبعيث كما نسب لتأبط شرًا؛ انظر: عيون الأخبار، جـ١.

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٤٥.

(٣) ابن قتيبة، المصدر السابق، جـ١، ص٢٠٦، ٢٠٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٠٦.

(٥) يذمر الناس: يحضهم على القتال.

(٦) ابن قتيبة، المصدر السابق، جـ١، ص٢٠٨.

وكتب أنوشروان إلى مرازبته: عليكم بأهل الشجاعة والسخاء فإنهم أهل حسن الظن بالله.

وقالت الحُكماء: استقبال الموت خيرٌ من استدباره.

وقال حسان بن ثابت:

ولسنا على الأعقاب تَدمى كلومُنا ... ولكن على أقدامنا تَقطر الدِّمَا

وقال العَلوي في هذا المعنى:

مُحرَّمةٌ أكفال خيلي على القَنا ... ودامية لَباتُها ونُحورُها

حَرامٌ على أرماحنا طَعن مُدبر ... وتغرَق منها في الصدور صُدورها

وكانوا يتمادحُون بالموت قَعصاً[1]، ويتهاجون بالموت على الفراش، ويقولون فيه: مات فلان حَتف أنفه. وأول من قال ذلك النبي عليه الصلاة والسلام[2].

وخطب عبدُ الله بن الزبير الناس لمّا بلغه قتل مصعب أخيه فقال: إن يُقتل فقد قُتل أبوه وأخواه وعمّه. إنا والله لا نموت حَتفاً، ولكن نموت قَعصاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف؛ وإن يُقتل مصعب فإن في آل الزبير خَلفا منه.

وقال السموأل بن عادياء:

ما مات منا سيِّدُ حتفَ أنفه ... ولا طُلّ منَّا حيث كان قتيلُ

تَسيل على حَد الظبات نفوسُنا ... وليس على غير السُّيوف تَسِيل

وقال آخر:

وإنا لتَستحلى المَنايا نفوسُنا ... ونترك أخرى مُرةً ما نَذوقها

وقال الشَنفَرى:

فلا تَدفنوني إن دفنى مُحرم ... عليكم ولكن خامِري أمَّ عامِرِ

إذا حملت رأسي وفي الرأس أكثَري ... وغودِر عند المُلتقى ثَم سائِري

(١) يقال: مات قعصاً، إذا أصابته ضربه أو رمية فمات مكانه.

(٢) رواه أحمد في مسنده [٤/٣٦] عن عبدالله بن عتيك رضي الله عنه بلفظ: «. . . أو مات حتف أنفه. . إلى قوله: ومن مات قعصاً فقد استوجب المآب». قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني وفيه محمد بن إسحاق مدلس وبقية رجال أحمد ثقات. انظر: مجمع الزوائد (٥/٢٧٦).

هُنالك لا أبغي حياة تَسُرني سَجيسَ[١] الليالي مُبسلا[٢] بالجرائر

قوله: خامري أم عامر، هي الضّبع. يعني بقوله: إذا قتلتموني فلا تدفنوني ولكن ألقوني إلى التي يقال لها: خامري أم عامر، وهي الضّبع وهذا اللفظ بعيد من المعنى.

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب [رضي الله عنه]ـ وقيل له: أتقتل أهل الشام بالغَداة وتَظهر بالعشى في إزار ورداء؟ ـ فقال: أبِالموت تُخوِّفوني! فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط عليّ.

وقال لابنه الحسن [رضي الله عنهما]: لا تدعُونَّ أحداً إلى المبارزة، وإن دُعيت إليها فأجب؛ فإني الداعي إليها باغ، والباغي مصروع[٣].

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: بقية السيف أنمى عدداً، وأطيب ولدًا[٤] يريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثر عددهم، ونمى ولدهم.

ومما يستدلّ به على صدق قوله: ما عمِل السيفُ في آل الزبير، وآل أبي طالب، وما كَثر من عددهم.

وقال أبو دُلف العجلي:

إني امرؤ عودني مهري ركوب الغلس[٥]
يحمدني سيفي كما يحمد كري فرسي
سيفي بليلي قبسي وفي نهاري أنسي

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان:

لستُ لريحان ولا راح ولا على الجار بنبّاحِ

---

(١) سجيس الليالي: أي أبدا.

(٢) مبسلاً: أي مسلماً. يقول: لا أرجو في ذلك الوقت حياة سارة طول الليالي وأنا مسلم للأعداء بجرائري فيكون سبب شماتتهم.

(٣) انظر: ابن قتيبة، المصدر السابق، جـ١، ص٢١٠ مع بعض الاختلاف.

(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص٢١٣ مع اختلاف يسير.

(٥) الغلس: ظلام آخر الليل.

فإن أردت الآن لي موقفاً فبَين أسياف وأرماح
ترى فتى تحت ظِلال القَنا يقبض أرواحاً بأرواح

وقال أشهب بن رميلة:

أسود شرى لاقت أسود خفية تساقوا على حرد دماء الأساود[1]

وقيل للمُهلب بن أبي صُفرة: ما أعجب ما رأيت في حرب الأزارقة؟ قال: فتى كان يخرج إلينا منهم في كل غداة فيقف فيقول:

وسائلةٍ بالغيب عنّي ولو درت مُقارعتي الأبطال طال نحيبها
إذا ما التقينا كنت أول فارس يجود بنفس أثقلتها ذنوبها

ثم يحمل فلا يقوم له شيء إلا أقعده. فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك.

وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مَسلمة: ياأبا سعيد، هل دخلك ذُعر قطُّ لحَرب أو عدو؟ قال: ما سَلمت في ذلك من ذُعر يُنبه على حِيلي، ولم يغشني ذعر قط سلبني رأيي. قال هشام: صدقت، هذه والله البسالة.

وقيل لعنترة: كم كنت يوم الفرُوق[2]؟ قال: كنّا مائة، لم نكثر فنتكل[3]، ولم نقلّ فنذل.

وكان يزيد بن المهلّب يتمثل كثيراً في الحرب بقول حصين بن الحمام:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن أتقدَّما

وقالت الخنساء:

نُهين النفوس وبذل النفو س يومَ الكريهة أبقى لها

وقيل لعبَّاد بن الحُصَين ـ وكان من أشد أهل البصرة ـ: في أي عُدة كنت تريد أن تلقى عدوك؟ قال: في أجل مستأخر.

---

(١) الحرد: الغضب.

(٢) الفروق: موضع بديار بني سعد، كان فيه يوم من أيام حروب عبس وذبيان.

(٣) فنتكل: أي يتكل بعضنا على بعض.

وكان مما يتمثل به معاوية رضي الله عنه يوم صفين:

أبَت[1] لي شِيمتي وأبى بَلائي ... وأخذي الحَمدَ بالثَّمن الرَّبيح
وإقدامي على المكروه نَفسي ... وضربي هامة البطل المُشيح
وقولي كلّما جشأت وجاشت[2] ... مكانك تحمدي أو تَستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عِرْض صحيح

ونظير هذا قول قَطري بن الفُجَاءة:

وقولي كلما جشأت لنفسي ... من الأبطال ويحك لا تُراعي
فإنك لو سألت حياة يوم ... سِوى الأجل الذي لك لم تُطاعي

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين ويقول:

أيَّ يومَيّ من الموت أفر ... يوم لا يُقدر أو يوم قُدِرْ
يوم لا يُقدر لا أرهبُه ... ومن المقدور لا يُنجي الحذَر

ومثله قول جرير:

قُل للجبان إذا تأخّر سَرْجُهُ ... هل أنت من شَرَك المنيّة ناجي

وهذا البيت في شعره الذي أوله:

* هاج الهوى لفؤادك المُهتاج *

ومدح فيه الحجَّاج، فلما أنشده:

* قل للجبَان إذا تأخر سَرجه *

قال: جرّأتَ عليّ الناس قال: والله ما ألقيتُ لها بالاً أيها الأمير إلا وَقتى هذا!.

ونظير هذا مما يُشجِّع الجبان قول عَنترة الفوارس:

بكرت تُخوِّفني الحُتوف كأنني ... أصبحتُ عن غَرض الحُتوف بمعزل
فأجبتُها إنَّ المنية مَنهلٌ ... لابد أن أُسقَى بكأس المنهل
فاقني حياءَك لا أبالك واعلمى ... أنّي امرؤ سأموت إن لم أُقتَل

---

(١) نسب هذا الشعر لعمرو بن الإطنابة.

(٢) جشأت: أي تطلعت ونهضت جزعًا وكراهة.

ومن أحسن ما قالوه في الصبر قول نَهشل بن حَرِّي بن ضَمرة النهشلي:

ويـوم كأنَّ المـصـطلين بحـرّه ... وإن لم تكـن نارٌ وقـوف على جمر
صَبرنـا له حتـى يَبـوخ[1] وإنـما ... تُفـرَّج أيـام الكـريهـة بالـصـبر

وأحسن من هذا عندي قولُ حبيب:

فأثبـتَ في مُستنقَـع المـوت رجله ... وقـال لها من تحت إخمصـك الحشرُ
تردّى ثيـاب المـوت حُمرًا فما أتـى ... لها الليـلُ إلا وهي من سُندس خُضر

وأحسن من هذا قولهُ:

يستـعـذبـون منـايـاهـم كأنَّهمُ ... لا يخرُجـون من الـدنيـا إذا قُتِلوا

وقولُه في المعنى:

قومٌ إذا لَبِسـوا الحـديـد حَسبتَهم ... لم يحسـبـوا أن المـنّـيـة تُخلق
انـظر فحيث ترى السُّيوف لوامعاً ... أبـداً ففـوق رءوسـهـم تتـألّق

وقال الجَحّاب بن حكيم:

شهـدن مع الـنـبيِّ مسـوّمـات ... حُنيـنـاً وهـي داميـةُ الحـوامِي[2]
ووقـعـةَ راهط شَهـدت وحَلَّت ... سَنَـابـكُـهـن بالـبَـلد الحـرام
نُعـرِّض للطِّعـان إذا الـتـقـيـنـا ... خُدودًا لا تُعـرَّض للِّطام

أخذه من قولهم: ضَربة بسيف في عزّ، خير من لطمة في ذُلّ.

ومن أحسن ما وُصفت به رجال الحرب قولُ الشاعر:

رويـدًا بني شِيبـان بعض وَعيـدكم ... تُلاقـوا غداً خيـلي على سَفـوانِ[3]
تلاقُـوا جيـاداً لا تحيـد عن الـوغَى ... إذا ما غدت في المـأزق المُـتـداني
إذا استنجـدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأيـةِ حرب أم بأي مكـان

---

(١) يبوخ: يسكن.

(٢) الحوامي: ميامن الحافر ومياسره.

(٣) سفوان: ماء على أميال من البصرة، وكانت بنو شيبان توعد تميماً وتزعم أن سفوان لهم، وأرادوا إجلاء بني مازن عنه ومن كان معهم من بني تميم.

ونظير هذا قولُ الآخر:

قومٌ إذا نزل الغَريبُ بدارهم ... تركوه رَبَّ صَواهل وقِيانِ
وإذا دعوتَهمُ ليوم كريهةٍ ... سَدُّوا شُعاع الشمس بالفرسان
لا ينكتون الأرض عند سُؤالهم ... لتطلُّب العِلَّات بالعيدان
بل يُسْفِرُون وجوههم فترى لها ... عند السؤال كأحسنِ الألوان

ومن أحسن المُحدثين تشبيهًا في الحرب، مسلم بن الوليد الأنصاري في قوله ليزيد ابن مزيد:

تلقى المنيّة في أمثال عُدتها ... كالسَّيل يَقذِف جُلمودا بجُلمودِ
تجود بالنَّفس ... ضَن الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقوله أيضا:

مُوفٍ على مُهَج في يوم ذي رهج ... كأنَّه أجلٌ يسعى إلى أمَلِ
ينالُ بالرِّفق ما تعيا الرجالُ به ... كالموت مُستعجلاً يأتي على مَهَلِ

وقال أبو العَتاهية[1]:

كأنك عند الكرِّ في الحرب إنما ... تَفر عن السِّلم الذي من ورائكا
كأنّ المنايا ليس تجري لدى الوغَى ... إذا التقت الأبطالُ إلا برائكا
فما آفة الآجال غيرُك في الوغى ... وما آفة الأموال غيرُ حبائكا

وقال زيد الخيل:

وقد عَلمت سلامة أن سيفي ... كريةُ كلما دُعيت نَزالِ
أحادثه[2] بصقل كلَّ يوم ... وأعجمُه[3] بهامات الرجال

---

(١) هذا الشعر قاله أبو العتاهية يمدح به يزيد بن مزيد الشيباني. «انظر ديوان أبي العتاهية طبعة بيروت».

(٢) أحادثه: أجلوه.

(٣) أعجمه: أبلوه وأخبره.

وقال أبو مُحلِّم السعدي[١]:

تقـول وصكَّت وجههـا بيَمينهـا ... أبعـلي هذا بالـرَّحى المُتقاعِسُ[٢]
فقـلتُ لها لا تَعـجـلي وتَـبـيّـني ... بلائي إذا الـتـفَّت عليَّ الفـوارس
ألستُ أردّ القِـرنَ يركبُ رَدعـه[٣] ... وفيـه سِنـانٌ ذو غِرارَين نائِس[٤]
إذا هاب أقـوامٌ تقحَّـمت غمـرةً ... يَهاب حُمياهـا الألـدّ المُداعِس[٥].
لَعَـمـر أبـيـكِ الخـير إنِّي لخادِم ... لِضـيـفـي وإنّي إن ركبتُ لفـارِس

وقال آخر يمدح المُهلَّب بالصبر:

وإذا جُدِدْتَ فكـلُّ شيء نافـعٌ ... وإذا حُدِدْتَ فكـل شيء ضائـرُ
وإذا أتـاك مُهـلّبـي في الـوغى ... في كفّـه سَيـفٌ فنِـعـم الـنّـاصر

ومن قولنا في وَصف الحرب:

سُيـوف يَقيـلُ المَوتُ تحت ظُبـاتها ... لها في الكُلى طَعم وبين الكُلى شُربُ
إذا اصـطفت الـرايـات حُمرا مُتونُها ... ذوائبُهـا تَهفـو فيَهفـو لها القَلب
ولم تَنـطِق الأبـطال إلا بفِـعـلها ... فألسُـنهـا عُجم وأفعـالُهـا عُرب
إذا ما التقَـوا في مأزِق وتَعـانقـوا ... فلُقيـاهـم طَعـن وتَقبيلهم ضَرب

---

(١) أبو محلم، هو محمد بن سعد، وقيل محمد بن هشام بن عوف السعدي. وقد نسب هذا الشعر في شرح ديوان الحماسة لهذلول بن كعب العنبري. كما نسب في الكامل للمبرد لأعرابي من بني سعد بن زيد مناة، وكان مملكا، فنزل به أضياف فقام إلى الرحى فطحن لهم، فمرت به زوجته في نسوة فقالت لهن: أهذا بعلي؟ فأعلم بذلك، فقال هذا الشعر.

(٢) المتقاعس: الذي دخل ظهره وخرج صدره، يقول: إن امرأتي حين رأتني وأنا أطحن بالرحى للأضياف ضربت وجهها بيمينها تأسفا منها أني أتولى عمل الرحى وأنا زوجها، وأنكرت مني هذا الفعل.

(٣) يركب ردعه، أي يخر صريعا لوجهه.

(٤) كذا في شرح الحماسة. والغرار: حد السيف. والنائس: المضطرب.

(٥) حمياها: شدتها. والألد: اللجوج الشديد الخصومة. والمداعس: المطاعن.

ومن قولنا في رجال الحرب، وأن الوغى قد أخذت من أجسامهم فهي مثل السيوف في رِقتها وصَلابتها:

سَيفٌ تَقلَّد مثله ... عَطف القَضيب على القضيب
هذا تُجزُّ به الرّقا ... بُ وذا تُجزّ به الخُطوب

ومن قولنا أيضاً:

تراه في الوغى سيفاً صَقيلا ... يُقلِّب صفحتي سيفٍ صَقيل

ومن قولنا أيضاً:

سَيف عليه نِجادُ سيف مثله ... في حَدِّه للمُفسدين صَلاحُ

ومن قولنا أيضا في الحرب وذِكر القائد[1]:

مَقيلك تحت أظلال العَوالي ... وبَيتُك فوق صَهواتِ الجِياد
تَبختَرُ في قَميص من دِلاص ... وترفُل في رداء من نِجاد[2]
كأنك للحُروب رَضيعُ ثَدي ... غَدتك بكل داهية نآد[3]
فكم هذا التمني للمَنايا ... وكم هذا التجلُّد للجِلاد
لئن عُرف الجهاد بكل عام ... فإنك طولَ دهرك في جِهاد
وإنك حين أبتَ بكل سَعدٍ ... كمِثل الرُّوح آب إلى الفؤاد
رأينا السيفَ مُرتديًا بسيف ... وعاينّا الجواد على الجَواد

وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يُتقدَّم إليه، ومعنى بديع لا نظير له، وذلك قولنا:

وجَيش كظَهر اليمّ تنفَحه الصَّبا ... يَعُبُّ عُبوبًا من قَنا وقَنابل
فتنزل أولاه وليس بنازل ... وترحل أخراه وليس براحل
ومُعتَرك ضنك تعاطَت كُماتُه ... كؤوس دِماء من كُلى ومَفاصل
يُديرونها راحًا من الرُّوح بينهم ... ببيض رقاق أو بسُمر ذوابل

(١) هو أبو العباس أحمد بن أبي عبدة القائد.
(٢) الدلاص: الدرع، الواحد والجمع فيه سواء.
(٣) النآد: الداهية.

وتُسمعهم أمُّ المنيّة وسطَها ... غِناء صَليل البيض تحت المَناصل

ومن قولنا في هذا المعنى:

سَيفٌ من الحتف تردَّى به ... يومَ الوغى سيفٌ من الحَزم
مُواصِلا أعداءَه عن قِلىً ... لا صِلة القُربى ولا الرَّحْم
وصلٌ يحنّ الإلف من بُغضه ... شَوقا إلى الهِجران والصَّرم
حتى إذا نادمَهم سيفُه ... بكلِّ كأسٍ مُرَّة الطَّعم
ترى حُمَيّاها بهاماتهم ... تَغُور بين الجلد والعظم
على أهازيج ظُبا بَينها ... ما شِئتَ من حَذف ومن خَرْم
طاعُوا له من بعد عِصيانهم ... وطاعةُ الأعداء عن رَغم
وكم أعدّوا واستعدّوا له ... هَيهات ليس الخَضْم كالقَضم[1]

ومن قولنا في شِبهه:

كم ألحَم السيفَ في أبناء مَلحمة ... ما منهم فوق مَتن الأرض ديَّارُ
وأورد النارَ من أرواح مارقةٍ[2] ... كادت تَميّزُ من غيظ لها النار
كأنما صَال في ثِنيى مُفاضتِه[3] ... مُستأسِدٌ حَنِق الأحشاء هَدار
لما رأى الفتنةَ العَمياء قد رحُبت[4] ... منها على الناس آفاق وأقطار
وأطبقت ظُلم من فوقها ظُلمٌ ... ما يُستضاء بها نُور ولا نار
قاد الجيادَ إلى الأعداء سَاريةً ... قُبًّا[5] طواها كطَي العَصب إضمار
مَلومة تَتَبارى في مُلملَمَة[6] ... كأنها لاعتدال الخَلق أفهار[7]

---

(١) الخضم: الأكل بأقصى الأضراس. والقضم: الأكل بأطراف الأسنان.
(٢) المارقة: الخارجون عن الجماعة.
(٣) المفاضة: الدرع الواسعة.
(٤) رحبت الفتنة، أي اتسعت وعمت.
(٥) القب: الضوامر البطون؛ الواحد: أقب.
(٦) الململمة: المجتمعة؛ يريد الكتيبة.
(٧) الأفهار: حجارة يدق بها الطيب؛ الواحد: فهرة.

تزورّ عند احتماس الطعن أعينُها ... وهُنَّ من فُرُجات النقع نُظَّار
تَفوت بالثأر أقواماً وتُدركه ... من آخرين إذا لم يُدرَك الثار[١]
فأنساب ناصر دين الله يقدمُهم ... وحوله من جُنود الله أنصار
كتائب تتبارى حول رايته ... وجَحفل كسَواد الليل جَرَّار
قومٌ لهم في مَكر الليل غَمغمةٌ ... تحت العَجاج وإقبال وإدبار
يستقدمون كَرَاديسا[٢] مُكردسة ... كما تدفَّعَ بالتيار تيار
من كل أروع لا يرعى لهاجسةٍ ... كأنه مُخدر في الغِيل هصَّار[٣]
في قسطل[٤] من عَجاج الحَرب مُدَّ له ... بين السماء وبين الأرض أستارُ
فكم بساحتهم من شِلو مُضَرحٍ ... كأنه فوق ظهر الأرض إجَّار[٥]
كأنما رأسُه أفلاق حنظلة ... وساعداه إلى الزندين جُمار
وكم على النهر أوصالا مُقسَّمةً ... تَقَسَّمتها المَنايا فهي أشطار
قد فُلِّقت بصفيح الهند هامُهم ... فهُن بين حوامي[٦] الخيل أعشار

ومن قولنا في الحروب:

وحَومةٍ غادرت فُرسانها ... في مبرك للحرب جعجاع[٧]

---

(١) يريد أن تلك الخيل تفوت من طلبها بالثأر فلا يقدر عليها لسرعتها، كما أنها تلحق من يريد أن يفوتها فتدرك ثأرها منه.

(٢) كراديسا، أي جماعات عظيمة من الخيل؛ الواحدة: كردوسة (بضم الكاف).

(٣) المخدر (بكسر الدال وفتحها): الأسد الملازم خدره، أي: أجمته. والهصار: من الهصر، وهو الكسر والدق.

(٤) القسطل: الغبار الساطع في الحرب.

(٥) الإجار: السطح، كالإنجار (بالنون)، وهي لغة أهل الشام والحجاز. يريد أن ذلك الشلو قد سوى بالأرض فصار كالسطح على سطحها.

(٦) الحوامي: ميامن الحافر ومياسره. يريد تشبيه هامات القتلى بجَرُور الميسر، أي أنها مقسمة بين حوافر الخيل.

(٧) الجعجاع: الموضع الضيق الخشن.

مُستلحم بالموت مستشعر ... مُفرق للشمل جَمَّاع
وبلدة صحصحت منها[١] الرُّبا ... بفيلق كالسَّيل دفَّاع
كأنما باضت نَعامُ الفلا ... منهم بهام فوق أدراع
تراهم عند احتماس الوغى ... كأنهم جنٌّ بأجراع[٢]
بكل مأثور على متنه ... مثلُ مدَبِّ النَّمل في القاع[٣]
يرتد طرف العين من حَدِّه ... عن كوكب للموت لَمَّاع

ومن قولنا في الحرب:

ورُب ملتفة العوالي ... يلتمع الموت في ذُراها
إذا توطَّت[٤] حُزون أرض ... طحطحت[٥] الشُمَّ من ربُاها
يَقودها منه ليثُ غاب ... إذا رأى فرصة قضاها
تَمضي بآرائه سُيوف ... يستبق الموت في ظباها
بيضٌ تَحُلُّ القلوبَ سوداً ... إذا انتضى عزمه انتضاها
تتبعه الطيرُ في الأعادي ... تجنى كلا[٦] العُشب من كُلاها
أقدم إذ كاع[٧] كلُّ ليثٍ ... عن حومة الموت إذ رآها
فأقحَم الخيلَ في غِمَار ... تفغر بالموت لهوتاها
عَنَت له أوجُه المَنَايا ... فعافها القومُ واشتهاها

---

(١) صحصحت منها الربا، أي جعلت مرتفعاتها صحصحا، وهو ما استوى من الأرض، كالصحصاح.

(٢) الأجراع: الأرض ذات الحزونة؛ وقيل: هي الرمال السهلة المستوية.

(٣) المأثور: السيف الذي في متنه أثر، وهو فرنده. والقاع: الأرض السهلة.

(٤) توطت: أصله توطأت.

(٥) وطحطحت الشم من رباها. أي كسرتها ودققتها.

(٦) كلا العشب، يريد: كلأ العشب، فسهل.

(٧) كاع: جَبُن.

فرسان العرب في الجاهلية وا لإسلام

كان فارسُ العرب في الجاهلية ربيعة بن مُكَدَّم ؛ من بني فراس بن غَنْم بن مالك ابن كِنانة، وكان يُعقر على قبره في الجاهلية، ولم يُعقر على قبر أحد غيره.

وكان بنو فِراس بن غنم بن كِنانة أنجد العرب، كان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم. وفيهم يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة: من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب. أبدلكم الله بي من هو شر لكم، وأبدلني بكم من هو خير منكم. وددت والله أن لي بجميعكم ـ وأنتم مائة ألف ـ ثلثمائة من بني فراس بن غنم.

ومن فُرْسان العرب في الجاهلية: عَنترة الفوارس، وعُتيبة بن الحارث ابن شهاب، وأبو بَراء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبِسْطام بن قيس، والأحَيمر السعدي، وعامر بن الطُّفيل، وعمرو بن عبد وُدّ، وعمرو بن مَعْدِ يكرب.

وفي الإسلام: أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزبير، وطلحة، ورجال الأنصار، وعبد الله بن خازم السُّلمي، وعبّاد بن الحُصين، وعُمير بن الحُبَاب، وقَطريّ بن الفُجاءة، والحَريش بن هِلالَ السَّعْديّ، وشَبيب الحَروريّ[1].

وقالوا: ما استحيا شجاعٌ قطّ أنَ يَفِرّ من عبد الله بن حازم، وقَطريّ بن الفُجاءة صاحب الأزارقة.

---

(١) كان رسول الله ﷺ أشجع الناس وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحتمون به عندما يشتد وطيس المعركة كما حدث يوم أحد.

فقد روى مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أقرب إلى القوم منه. انظر صحيح مسلم [١٧٧٦] كتاب الجهاد والسير. وانظر الذهبي/تاريخ الإسلام ـ السيرة النبوية ص٤٦٢ وروى البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي وابن سعد عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أجمل الناس وجهاً وأجودهم كفاً وأشجعهم قلباً».

وقالوا: ذهب حاتم بالسخاء، والأحنف بن قيس بالحِلْم، وخُرَيم بالنِّعمة، وعُمَير بن الحُباب بالشدة.

وكان شَبيب الحَروريّ يَصِيح في جَنَبات الجيش، فلا يُلْوى أحد على أحد. وفيه يقول الشاعر:

إن صاح يومًا حسبتَ الصخرَ مُنحدرًا ... والريحَ عاصفةً والموجَ يَلتطمُ

ورجالُ الأنصار أشجع الناس. قال عبد الله بن عباس: ما استُلَّت السيوف، ولا زَحفت الزُّحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قَيلة يعني الأوس والخزرج. وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر، من الأزد.

العُتبيّ قال: لما أسنّ أبو بَراء عامرُ بن مالك، وضعَّفه بنو أخيه وخرَّفوه، ولم يكن له ولد يَحميه، أنشأ يقول:

دفعتكُمُ عني وما دفعٍ راحةٍ ... بشيء إذا لم تَسْتَعِنْ بالأنامِل
يُضعّفني حِلميْ وكثرةُ جَهْلكم ... عليّ وأني لا أصول بجاهل

وقال تأبّط شرًّا:

قليل التَّشكّي للمُهمّ يُصيبه ... كثيرُ الهَوى[1] شَتَّى النَّوى والمَسالك
يَبيت بمَوْماة ويُضْحي بغيرها ... جَحيشا ويَعْروري ظُهورَ المهالك[2]
إذا حاص عينَيه كَرى النوم لم يزَل ... له كاليءٌ من قَلْب شَيخان[3] فاتك
ويَجعل عينَيْه ربيئَة قَلْبه ... إلى سَلةٍ من حَدَّ أخلقَ باتك[4]
إذا هزّه في عَظم قِرْنٍ تهلّلت ... نَواجذُ أفواهِ المَنايا الضَّواحك

---

(١) كثير الهوى، أي متعدد المقاصد.

(٢) الموماة: المفازة لا ماء فيها. وجحيشا، أي منفردا. ويعروري، أي يركب؛ وأصله من اعرورى الدابة، إذا ركبها عارية الظهر.

(٣) الشيخان: الحازم.

(٤) الربيئة: الرقيب. والسلَّة: المرة، من سل السيف، إذا جرده. والأخلق: الأملس. والباتك: القاطع.

وقال أبو سعيد المَخزومي، وكان شجاعاً:

وما يريد بنو الأغبار[١] من رجُلٍ ... بالجَمر مُكتحلٍ بالنَّبل مُشتَمل
لا يشرب الماءَ إلا من قَليب دمٍ ... ولا يَبيت له جارٌ على وَجل

ونظير هذا قول بشار العقيلي:

فَتى لا يبيت على دِمْنة[٢] ... ولا يشرب الماءَ إلا بدَم

وذكر مُتمم بن نُويرة أخاه مالكاً وجَلده، فقال: كان يخرج في الليلة الصِّنَّبر[٣]، عليه الشَّملة الفَلوت[٤]، بين المَزادتين على الجمل الثِّفال[٥]. مُعتقِل الرُّمْح الخَطيِّ[٦]. قالوا: إن هذا لهو الجلد.

وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مُقَرِّن وهو على الصَّائفة: أن استعن في حربك بعمرو بن معد يكرب، وطُليحة الأزدي، ولا تُوَلِّهما من الأمر شيئاً، فإنّ كلّ صانع أعلمُ بصناعته.

وقال عمرو بن مَعدْ يكرب يصف صَبره وجَلَده في الحرب:

أعاذِل عُدني بَزِّي ورُمحي ... وكُلُّ مُقلِّص[٧] سَلس القِياد
أعاذِل إنما أفنى شَبابي ... إجابتي الصَّريخ إلى المُنادى
مع الأبطال حتى سَلَّ جِسْمي ... وأقْرح عاتقي حَمْلُ النِّجادِ

---

(١) الأغبار، إما جمع غبر (بالضم) وهو بقية الحيض. فإنه من صفات الذم عندهم أن تحمل المرأة بالولد في آخر ليلة من ليالي الحيض. أو جمع غبر (بالكسر) وهو الحقد.

(٢) يبيت على دمنة، أي لا يبيت على حقد، بل يعجل بأخذ ثأره شفاء لحقده.

(٣) الصنبر: الشديدة البرد.

(٤) الفلوت: التي لا تكاد تثبت على لابسها لأنها صغيرة أو ضيقة لا ينضم طرفاها، فهي تنفلت عنه كل ساعة.

(٥) الثفال: البطيء. وهي صفة للدواب وغيرها: البطيء الثقيل الذي لا ينبعث إلا كرهًا انظر/المعجم الوسيط ص٩٧ دار الدعوة ـ استانبول.

(٦) الخطي: منسوب إلى الخط وهي بلدة بالبحرين وينسب إليها أجود الرماح.

(٧) المقلص: الفرس الطويل القوائم المشرف المشمر.

ويَبقى بعد حِلم القوم حِلمي ... ويَفْنى قبل زاد القوم زادي
ومن عَجب عَجبتُ له حَديثٌ ... بَديع ليس من بِدْعِ السَّداد
تَمنى أن يُلاقيني أبَيٌّ ... وَددت وأينما منى ودادي
تَمنَّاني وسابغتي قَميصي ... كأن قَتيرها[1] حَدَق الجَراد
وسيف من لدُن كنعان عِندي ... تُخَيِّر نَصْلُه من عهد عاد
فلو لاقيتَني للقيتَ لَيثاً ... هَصُورا ذا ظُباً وشَباً حِداد
ولا ستيقنت أن الموت حق ... وصَرَّح شحم قَلبك عن سَواد
أريد حياته ويُريد قَتلي ... عَذيرَك مِن خَليلك مِن مُرادِ

ومن قوله في قَيس بن مَكشوح المُرادي :

تمنَّاني على فرس ... عليه جالساً أسدُه
عليّ مفاضةٌ كالنـ ... ـهي أخلص ماءَه جدَده[2]
فلو لا قيتني للقيـ ... ـت ليثاً فوقه لبدَه
سَبنتي ضَيغماً هصرًا ... صِلخداً ناشزاً كَتَده[3]
يُسامي القِرن إن قِرن ... تَيممه فيعْتَضده
فيأخذه فيُرديه ... فيخفضه فيَقتصده[4]
فَيدمغه فَيحطِمه ... فَيخضِمه فيزدرده[5]

---

(١) قتير الدرع : مساميرها التي تكون بين حلقاتها.

(٢) المفاضة : الدرع الواسعة. والنهي : الغدير من الماء. والجد : الأرض الصلبة. شبه الدرع بالغدير في صفائها واطرادها.

(٣) السبنتي : الجريء المقدام. والصلخد : الصلب القوي، أو الشهم الماضي. والناشز: المرتفع. والكتد : مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس أو الكاهل وجمعه أكتاد وكتود. انظر المعجم الوسيط ص٧٧٥.

(٤) يقتصده، أي يقتله..

(٥) يدمغه : يصيب دماغه. ويحطمه : يكسره. ويخضمه : يأكله. ويزدرده : يبتلعه.

المكيدة في الحرب

قال النبيّ ﷺ: «الحربُ خُدعة»[١].

وقال المُهلب لبَنيه: عليكم بالمَكيدة في الحرب، فإنها أبلغ من النجدة.

وكان المُهلب يقول: أناة في عواقبها فَوت، خير من عجلة في عواقبها دَرك.

وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أخذت أمرًا قط بحزم فلُمت نفسي فيه وإن كانت العاقبة عليّ، ولا أخذت أمرًا قط وضيعت الحزم فيه إلا لُمت نفسي عليه وإن كانت العاقبة لي.

وسُئل بعض أهل التَّمرُّس بالحرب: أي المكايد فيها أحزم؟ قال: إذكاء العيون، وإفشاء الغَلبة، واستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتة الفَرَق، والاحتراس من البطانة، من غير إقصاء لمن يُستنصَح، ولا استنصاح لمن يُستغشّ، واشتغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره.

وفي كتاب للهند: الحازم يحذَر عدوّه على كل حال، يحذر المُواثبة إن قَرُب، والغارَة إن بَعد، والكمينَ إن انكشف[٢]، والاستطراد إن وَلّى.

وقال المأمون للفضل بن سَهل. قد كان لأخي رأي لو عَمل به لظَفر. فقال له الفَضل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: لو كتب إلى أهل رُسان وطَبرستان والرَّي ودُنباوَند أنه قد وهب لهم الخراج لِسنة لم نَخل نحن من إحدى خصلتين، إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه، فعَصانا أهل هذه البلدان وفسدت نيَّاتهم فانقطعوا عن مُعاونتنا؛ وإما قَبلناه وأمضيناه فلا نَجد ما نُعطي منه من معنا [وتفرّق جُندنا ووَهَى أمرُنا. فقال الفضل: الحمد الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه].

وكتب الحجّاج إلى المهلّب يستعجله في حرب الأزارقة فكتب إليه: إنّ من البليَّة أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يُبصره.

---

(١) متفق عليه عن جابر وأبي هريرة.

(٢) انكشف، يريد انكشاف العدو عن موضعه، أي انهزامه.

وكان بعض أهل التَّمرُّس يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشُّجعان من أولى العزم، والجُبناء من أولى الحزم فإن الجبان لا يألو برأيه ما بقى مُهجكم، والشجاع لا يعـدُو ما يشُـد بصيرتكم. ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معرة الجبان، وتهور الشجعان، فتكون أنفذ من السهم الزالج، والحسام الوالج.

وقيل: صالحَ سعيد بن العاص حِصنـاً من حصون فارس على أن لا يقتُل منهم رجلا واحداً، فقتلهم كلهم إلا رجلاً واحداً.

ابن الكلبي قال: لما فتح عمرو بن العاص قَيساريةَ سار حتى نزل غزَّة، فبعث إليه علجُها: أن ابعث إليّ رجلاً من أصحابك أكلمه. ففكر عمرو وقال: ما لهذا أحـدٌ غيري. قال: فخرج حتى دخل على العلج فكلمه، فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله. فقال العِلج: حدِّثني: هل في أصحابك أحدٌ مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا، إنّي هيّن عليهم إذ بعثوا بي إليك وعرّضوني لما عرّضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي؟ قال: فأمر له بجائزة وكُسوة، وبعث إلى البوّاب: إذا مَر بك فاضرب عُنقَه وخُذ ما معه. فخرج من عنده فمر برجل من نصارى غسّان فعرفه فقال: ياعمرو، قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج. ففَطن عمرو لما أراده، فرجع. فقال له الملك: ماردّك إلينا؟ قال: نظرتُ فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يَسع بني عمّي، فأردتُ أن آتيك بعشرة منهم تُعـطيهم هذه العَطيّة، فيكون معروفك عند عشرة خيرًا من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت، اعْجل بهم. وبعث إلى البواب أن خلِّ سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أَمِن، قال: لا عُدتُ لمثلها أبداً. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلجُ، قال له: أنت هو! قال: نعم، على ما كان من غَدرك.

وقال: ولما أُتِي بالهُرمزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: يا أمير المؤمنـين، هذا زعيم العَجم وصـاحب رُستم[1]. فقـال له عمـر: أعرضُ عليك الإسلام نُصحـاً لك في عاجلك وآجلك. قال: ياأمير المؤمنين، إنما أعتقدَ ما أنا عليه

(١) رستم هذا هو ابن فرخزاد، وكان من أعظم رجال فارس، وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان في وقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون وقتل فيها رستم.

ولا أرغب في الإسلام رهبةً. فدعا له عمرُ بالسيف. فلما هَم بقتله، قال: ياأمير المؤمنين، شربةٌ من ماء أفضل من قتلي على ظمأ. فأمر له عُمر بشربة من ماء. فلما أخذها قال له: أنا آمِنٌ حتى أشربها؟ قال: نعم. فرمَى بها وقال: الوفاءُ ياأمير المؤمنين نُور أبلج. قال: صدقتَ، لك التوقفُ عنك وأنظر في أمرك، ارفعوا عنه السيف. فلما رُفع عنه قال: الآن ياأمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وما جاء به حقّ من عنده. قال عمر: أسلمت خير إسلام، فما أخّرك؟ قال: كَرهتُ أن يظُن أنّي إنما أسلمتُ جَزعاً من السيف، وإيثارًا لدينه بالرَّهبة. فقال عمر: إنّ لأهل فارس عُقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من المُلك؛ ثم أمر به أن يبرَّ ويُكرم. فكان عمر يشاوره في توجيه العساكر والجُيوش لأهل فارس.

وهذا نظير فعل الأسير الذي أتى به مَعنُ بن زائدة في جُملة الأسرى فأمر بقتلهم، فقال له أتقتل الأسرى عطاشاً يامعن؟ فأمر بهم فسُقوا. فلما شربوا قال: أتقتل أضيافك يامعن؟ فخلّى سبيلهم.

وذكروا أنَّ مَلِكاً من ملوك العَجَم كان معروفاً ببُعدْ الغَورْ ويَقظة الفِطْنة وحُسن السياسية، وكان إذا أراد مُحاربة ملك من الملوك وجّه إليه مَن يَبحث عن أخباره وأخبار رعيّته قبل أن يُظهر مُحاربته، فيكْشف عن ثلاث خصال من حاله، فكان يقول لعُيونه: انظروا هل تَرِد على الملك أخبارُ رَعيَته على حقائقها أم يخْدَعه عنها المُنْهى ذلك إليه؟ وانظروا إلى الغِنَى في أي صِنف هو من رعيته، أفيمن اشتدّ أنفَهُ وقَلّ شَرهه؟ أم فيمن قَلّ أنفَهُ واشتدَّ شرهه؟ وانظروا في أي صنفي رعيَّته القوّامُ بأمره؟ أفيمن نظر ليومه وغده؟ أم من شغله يومُه عن غده؟ فإن قيل له لا يُخدع عن أخبار رعيَّته، والغِنَى فيمن قلّ شرهه واشتد أنفه، والقوام بأمره من نظر ليومه وغده؛ قال: اشتغلوا عنه بغيره. وإن قيل له ضد ذلك؛ قال: نارٌ كامنة تنتظرُ مُوقد، وأضغان مُزمَّلة[1] تنتظر مخرجاً، اقصدوا له فلا حَيْنَ أحْيَنُ من سلامةٍ مع تَضْييع، ولا عدوّ أعدى من أمْن أدّى إلى اغترار.

---

(١) مزملة: مستورة.

أُسامة بن زيد اللَّيثي : قال : كان النبي ﷺ إذا غزا أخذ طريقـاً وهو يريد أخرى، ويقول : **الحرب خُدعة**[١].

زياد عن مالك بن أنس قال : كان مالك عبد الله الخَثعميّ، وهو على الصائفة يقوم في الناس كلما أراد أن يرحل، فيحمد الله تعالى ويُثني عليه، ثم يقول : إنّي داربٌ بالغَـداة إن شاء الله تعالى دَرْبَ كذا. فتتفرق الجواسيسُ عنه بذلك. فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقـاً أخرى. فكانت الروم تسمّيه الثعلب.

وصايا أمراء الجيوش

كتب عُمرُ بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجَرَّاح : إنه بلغني أن رسولَ الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً أو سريَّة قال : «**اغزُوا بسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً**»[٢] فإذا بعثت جيشاً أو سرية فمُرهُم بذلك.

وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقول عند عَقد الأَلْوية : بسم الله وبالله وعلى عَون الله، امضُوا بتأييد الله والنَّصر، ولُزوم الحق والصبر، فقاتِلُوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدُوا إنّ الله لا يُحب المعتدين، ولا تجبُنوا عند اللقاء، ولا تُمَثِّلوا عند القُدرة، ولا تُسْرفوا عند الظهور، ولا تَقتلوا هَرمـاً ولا امرأة ولا وليداً، وتوقَّوْا قتلَهم إذا التقى الزَّحْفان، وعند حُمَّة النَّهضات، وفي شَنّ الغارات.

---

(١) كان رسول الله ﷺ : إذا غزا ناحية ورَّى بغيرها، وكان يقول الحرب خدعة. رواه أبو داود عن كعب بن مالك.

(٢) رواه مسلم بنحوه عن بريدة بن الحصيب ـ وانظر الموطأ ـ كتاب الجهاد.
وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فأنكر ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان. / انظر الموطأ ـ كتاب الجهاد ـ النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو ص٢٨٩.

ولما وَجه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان[١] إلى الشام شيَّعه راجلاً. فقال له يزيد: إمّا أن تركب وإمّا أن أنزل. فقال: ما أنت بنازل وما أنا براكب إني احتسب خطاي هذه في سبيل الله، ثم قال: إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له ـ يعني الرُّهبان ـ وستجد قوماً فحصوا عن أوساط رؤسهم الشعر، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. ثم قال له: إني مُوصيك بعشر: لا تغدر ولا تُمثِّل، ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلاً، ولا تخربن عامراً ولا تغل ولا تبخس[٢].

وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد حين وجّهه لقتال أهل الردّة: سِرْ على بركة الله، فإذا دخلتَ أرض العدوّ فكن بعيداً من الحملة، فإني لا آمن عليك الجَوْلة. واستظهر بالزاد، وسِر بالأدلاّء، ولا تقاتل بمَجْروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البَيات فإن في العرب غِرَّة: وأقِلَّ من الكلام فإنما لك ما وُعى عنك. واقبَل من الناس علانيتهم، وكِلْهم إلى الله في سرائرهم. وأستودعُك الله الذي لا تضيع ودائعه.

كتب خالد بن الوليد إلى مَرازبة فارس مع ابن نُفَيلة الغسَّاني: الحمد لله الذي فضّ حُزمتكم، وفرّق جَمعكم، وأوهن بأسكم، وسَلَب مُلْككم، وأذَلّ عِزّكم. فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثُوا إليَّ بالرُّهن، واعتقدوا منّا الذمّة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرنّ إليكم بقوم يُحبون الموت كما تُحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا.

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد: أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن

---

(١) هو أحد أمراء الأجناد الأربعة الذين عقد لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسيرهم لفتح الشام، ولما فتحت دمشق أمّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه على دمشق. انظر الذهبي / تاريخ الإسلام.

(٢) رواه مالك بنحوه عن يحيى بن سعيد. انظر الموطأ ـ كتاب الجهاد.

تقوى الله أفضلُ العُدّة على العدوّ، وأقوى المَكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ أحتراسًا من المعاصي منكم من عدوّكم، فإنّ ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوةٌ؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعُدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مَسيركم حَفَظةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيُوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شرٌّ منّا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فربّ قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سُلط على بني إسرائيل، لمّا عملوا بمساخط الله، كفار المجوس ﴿**فجاسُوا خلال الدِّيار وكان وعداً مفعولاً**﴾[1]. واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم. أسأل الله ذلك لنا ولكم. وترفَّق بالمسلمين في مَسيرهم ولا تُجشّمهم مسيراً يُتعبهم، ولا تُقَصِّر بهم عن منزل يَرفُق بهم، حتى يبلغوا عدوَّهم والسفرُ لم يَنْقُص قوتَهم، فإنهم سائرون إلى عدوّ مُقيم حامي الأنفس والكُراع[2]. وأقِم بمَن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يُحيون فيها أنفسهم، ويُرمِّون أسلحتهم وأمتعتهم ونَح منازلهم عن قُرى أهل الصلح والذمّة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً، فإن لهم حُرمة وذمّة ابتُليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صَبروا لكم فتولّوهم خيراً. ولا تستنصروا على أهل الحَرْب بظُلم أهل الصلح. وإذا وَطِئْتَ أرض العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم، ولا يخفَ عليك أمرُهمُ. وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدْقه، فإن الكذوب لا ينفعك خَبره وإن صدّقك في بعضه، والغاش عَينٌ علَيك وليس عيناً لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تُكثر الطلائعُ وتَبُث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادَهم وموافقهم، وتتبع الطلائع عوراتِهم. وانتق للطلائع أهل الرأى

---

(١) سورة الإسراء آية ٥.

(٢) الكراع: الخيل.

والبأس من أصحابك، وتخيّر لهم سَوابق الخيل. فإن لقوا عدوّاً كان أولَ ما تلقاهم القوةُ من رأيك، واجعل أمر السَّرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، لا تخُص بها أحداً بهوىً، فيضيع من رأيك وأمرك أكثرُ مما حابيتَ به أهل خاصّتك. ولا تبعثن طَليعة ولا سريّة في وجه تتخوفُ عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية. فإذا عاينت العدوَ فاضمُم إليك أقاصِيَك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مَكيدتك وقوتك، ثم لا تُعاجلهم المُناجزة، ما لم يستكرهك قِتال، حتى تُبصر عورةَ عدوك ومَقاتله، وتَعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك كصُنعه بك. ثم أذكِ أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البَيات جُهدك. ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عُنقه، لترهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان.

وأوصى عبد الملك بن مروان أميرًا سيّره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجر الله لعباده، فكُن كالمُضارب الكيِّس الذي إن وجد ربحاً تَجَر، وإلاّ تحفظ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تُحرز السلامة، وكُن من احتيالك على عدوّك أشدَّ حذرًا من احتيال عدوّك عليك.

وكان زياد يقول لقوّاده: تجنّبوا اثنين لا تقاتلوا فيهما العدوّ: الشتاءَ وبُطون الأودية.

وأغزَى الوليدُ بن عبد الملك جيشاً في الشتاء، فغَنموا وسَلِموا، فقال لعبّاد[1]: ياأبا حرب، أينَ رأي زياد من رأينا؟ فقال: ياأمير المؤمنين، قد أخطأت، وليس كل عَورة تُصاب.

العُتبي قال: جاشت الروم وغزوا المسلمين برّاً وبحرًا، فاستعمل مُعاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فلما كتب له عهده قال: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه إماماً لا أعصيه. قال: أردُد عليّ عهدي. ثم بعث إلى سفيان ابن عوف الغامدي فكتب له عهدَه، ثم قال له: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه

(١) هو عباد بن زياد.

إمـامـا أمام الحَزم، فإن خالفَه خالفتُه. فقال معاوية: هذا الذي لا يُكفكف من عجلة، ولا يُدفع في ظهره من خور، ولا يضرب على الأمور ضَربَ الجمل الثفال[١].

وقال دُريد بن الصِّمة لمالك بن عوف النَّصري قائد هَوازن يوم حُنين: يامالك، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام. مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير وبُكاء الصغير، ويُعار الشاء[٢]؟ قال: سُقت مع الناس أبناءَهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولِمَ ذاك؟ قال: أردتُ أن أجعل خلفَ كل رجل أهله وماله ليُقاتل عنهم. فأنقَضَ[٣] به وقال: راعي ضأن والله؟ وهل يَرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسَيفه ورُمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك. وَيحك! إنك لم تصنع بتقديم البَيضة بيضةِ هَوازن[٤] إلى نُحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى مُتمنع بلادهم، وعُليا قومهم، ثم القَ الصُّباء[٥] على مُتون الخيل. فإن كانت لك لحَق بك مَن وراءك، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك. قال: لا والله لا أفعل ذلك، إنك قد كَبِرت وذَهل عقلك. قال دُريد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتني، ثم أنشأ يقول:

يالـيـتَـني فيـهـا جَذَعْ أخُـبْ فيـهـا وأضَـعْ[٦]

---

(١) الثفال: البطيء من الدواب وغيرها انظر المعجم الوسيط ص٩٧.

(٢) يعار الشاء: صوتها.

(٣) انقض به، أي زجره، من الإنقاض، وهو أن تلصق لسانك بالحنك الأعلى ثم تصوت في حافتيه من غير أن ترفع طرفه عن موضعه. أو هو التصويت بالوسطى والإبهام كأنك تدفع بهما شيئا، وذلك حين تنكر على غيرك قولا أو عملا.

(٤) بيضة هوازن: جماعتهم.

(٥) الصباء: جمع صابيء، يريد المسلمين، كانوا يسمونهم بهذا الاسم، أي خرجوا من دين الجاهلية إلى الإسلام.

(٦) الجذع: الشاب. والخبب والوضع: ضربان من السير.

أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع[1]

وكان قُتيبة بن مُسلم يقول لأصحابه: إذا غَزوتم فأطيلوا الأظفار وقَصِّروا الشعور، والحَظُّوا الناس شَزرًا، وكلمُوهم رمزًا، واطعنوهم وخزًا.

وكان أبو مسلم يقول لقواده: أشعروا قُلوبكم الجُرأة فإنها من أسباب الظفر، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حِصن المحارب.

وكان سعيد بن زيد يقول لبنيه: قصروا الأعِنّة واشحذُوا الأسنَّة، تأكلوا القَريب، ويَرهبكم البعيد.

المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير

قال عبد الملك بن مروان لجُعيل بن علقمة الثعلبي: ما مبلغ عزِّكم؟ قال: لم يُطمع فينا ولم يُؤمن منّا. قال: فما مَبلغ حِفظكم؟ قال: يدفع الرجل منّا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه. قال عبد الملك: مثلك من يصف قومه.

قال عبد الملك بن مروان لابن مُطاع العنزيّ: أخبرني عن مالك بن مِسمع. قال له: لو غضِب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غَضب. قال عبد الملك: هذا والله السؤدد.

قال: ولم يَل قطُّ مالك بن مِسمع ولا أسماءُ بن خارجة شيئا للسلطان.

وكانت العرب تَمتدح بالذب عن الجار فيقولون: فلان مَنيع الجار، حامي الذِّمار. نعم، حتى كان فيهم من يحمي الجَراد إذا نزل في جِواره، فسُمي مُجير الجراد.

وقال مَروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة ويصف مَفاخر بني شيبان ومنعهم لمن استجار بهم:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا ... أجابُوا وإن أعطَوا أطابوا وأجْزَلُوا

همُ يَمنَعون الجار حتى كأنما ... لجارِهمُ بين السِّماكين منزل

---

(١) الوطفاء: الطويلة الشعر. والزمع: الشعر الذي فوق مربط قيد الدابة. والشاة: الوعل وهو تيس الجبل. والصدع (محركة) من الأوعال والظباء والحمر: الفتى الشاب القوي.

وقال آخر :

هُمُ يمنعون الجارَ حتى كأنه كَتيبة زَوْر[١] بين خافِيتي نَسْرِ

وذُكر أن مُعاوية ولّى كَثير بن شِهاب المذحِجي خُراسان، فاختان مالاً كثيراً ثم هربَ فاستتر عند هانيء بن عُروة المُراديّ : فبلغ ذلك معاوية، فهَدر دم هانيء. فخرج هانيء إلى مُعاوية فكان في جواره، ثم حَضر مجلسه وهو لا يعرفه، فلما نهض الناس ثَبت مكانه. فسأله معاوية عن أمره، فقال: أنا هانيء بن عُروة. فقال: إنّ هذا اليوم ليس باليوم الذي يقول فيه أبوك:

أُرجِّل جُمتي وأجر ذَيلي وتحمل شِكتيّ أفق كُميت[٢]

وأمشي في سَراة بني غُطيف إذا ما ساءني أمر أبَيت

قال: أنا والله ياأمير المؤمنين اليوم أعزّ منّي ذلك اليوم. فقال: بِمَ ذلك؟ قال: بالإسلام. قال: أين كَثير بن شِهاب؟ قال: عندي وعندك ياأمير المؤمنين. قال: انظُر إلى ما اختانه، فخُذ منه بعضاً، وسَوِّغه بعضاً، وقد أمَّناه ووهبناه لك.

الشيباني قال: قال سَعيد بن سَلم: أهدر المَهدي دَمَ رجل من أهل الكوفة كان يسعى في فساد دولته وجعل لمن دله عليه أو جاءه به مائة ألف دِرهم. قال: فأقام الرجل حيناً متواريا ثم إنه ظهر بمدينة السلام، فكان ظاهرًا كغائب، خائفًا مترقبًا. فبينا هو يمشي في بعض نواحيها إذ بَصُر به رجل من أهل الكوفة فعرفه، فأهوى إلى مجامع ثوبه، وقال: هذا بُغية أمير المؤمنين؛ فأمكن الرجل من قياده، ونظر إلى الموت أمامه. فبينما هو على الحالة إذ سمع وقعَ الحوافر من وراء ظهره، فالتفت فإذا مَعن بن زائدة، فقال: ياأبا الوليد، أجرني أجارك الله؛ فوقف وقال للرجل الذي تَعلق به: ما شأنك؟ قال: بُغية أمير المؤمنين، الذي أهدر دمَه وأعطي لمن دلّ عليه

---

(١) كتيبة الزور: أي مجتمعه.

(٢) الجمة: ما سقط من الشعر على المنكبين. والشكة: السلاح، من درع ومغفر وسيف ورمح. ويروي: «بزتي». والأفق: الفرس الرائعة الكريمة.
والكميت: من الكمتة، وهي لون بين السواد والحمرة. يصف نفسه في صدر هذا البيت بالنعمة، وفي الشطر الثاني بشدة البأس.

مائة ألف. فقال: ياغلام، انزل عن دابتك، واحمل أخانا. فصاح الرجل: يامعشر الناس، يُحال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين! قال له مَعن: اذهب فأخبره أنه عندي. فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب، فدخل إلى المهدي فأخبره، فأمر بحبس الرجل، ووجه إلى مَعن من يحضر به. فأتته رسل أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه، وقُرّبت إليه دابته، فدعا أهل بيته ومواليه فقال: لا يخلصنّ إلى هذا الرجل وفيكم عينٌ تطرف. ثم رَكِب ودخل حتى سلم على المهديّ، فلم يردَّ عليه. فقال: يامعن، أتجير عليّ؟ قال: نعم ياأمير المؤمنين. قال: ونعم أيضاً! واشتد غضبه. فقال مَعن: ياأمير المؤمنين، قتلتُ في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسةَ عشر ألفاً، ولي أيامٌ كثيرة قد تقدم فيها بلائي، وحَسُن غَنائي، فما رأيتموني أهلا أن تهبوا لي رجلا واحداً استجار بي؟ فأطرق المَهدي طويلاً، ثم رفع رأسه وقد سُرِّيَ عنه، فقال: قد أجرنا من أجرت. قال مَعن: فإن رأي أمير المؤمنين أن يَصِلَه فيكون قد أحياه وأغناه فَعل. قال: قد أمرنا له بخمسين ألف. قال ياأمير المؤمنين، إن صِلَات الخُلفاء تكون على قدر جنايات الرعية، وإنّ ذنب الرجل عظيم، فأجزل له الصّلة. قال: قد أمرنا له بمائة ألف. قال: فتعجّلها ياأمير المؤمنين فإن خير البرّ عاجله. فأمر بتعجيلها. فدعا لأمير المؤمنين بأفضل الدعاء، ثم انصرف ولحقه المال. فدعا الرجل، فقال له: خُذ صِلَتك، والحق بأهلك، وإياك ومُخالفة خلفاء الله تعالى.

الجبن والفرار

قال عمرو بن مَعد يكرب: الفَزَعات ثلاث: فمن كانت فَزعته في رِجليه، فذلك الذي لا تُقله رِجلاه؛ ومن كانت فَزعته في رأسه، فذلك الذي يفِر عن أبويه، ومن كانت فزعته في قلبه، فذلك الذي يُقاتل.

وقال الأحنف بن قيس: أسرعُ الناس إلى الفتنة أقلّهم حياءً من الفِرار.

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن لله خلقا قلوبهم كقلوب الطير، كلما خَفقت الريح خفقت معها، فأفٍّ للجبناء! أفٍّ للجبناء!

وقال الشاعر:

يَفِـر الجـبـانُ عن أبـيـه وأمـه ... ويَحمِي شجاعُ القوم من لا يُناسبُه
ويُـرزق معـروفَ الجـواد عَدوُّه ... ويُحـرم معـروفَ البخيـل أقاربـه

وقال خالد بن الوليد عند موته. لقد لقيتُ كذا وكذا زَحفاً، وما في جِسمي موضعُ شِبر إلا وفيه ضَربة أو طعنة أو رَمية، ثم هأنذا أموتُ حتف أنفي كما يموت العَير، فلا نامت أعينُ الجُبناء.

ومن أشعار الفرَّارين الذين حسَّنوا فيها الفِرار على قُبحه حتى حَسُن، قولُ الفَرَّار السُّلَمي[1]:

وكَـتـيـبـةٍ لَبَّـسـتُـهـا بكـتـيـبـة ... حتـى إذا الـتبستْ نفضتُ لها يَدِي[2]
وتـركتهم تَقِص الـرمـاحُ ظهـورَهم ... من بين مَقْتـول وآخـر مُسنَـد[3]
هل يَنـفـعـنِي أن تقـول نسـاؤهم ... وقُـتلت دون رجـالهـا: لا تَبعَـدِ

وقال أبو عُبيدة مَعمر بن المثنَّى: ما اعتذر أحد من الفَرَّارين بأحسن مما اعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول:

الله يَعـلـم ما تركـتُ قِتـالهـم ... حتى رمَـوا مُهـري بأشقَـرَ مُزبـدِ[4]
وعـلمـتُ أني إن أقـاتـل واحـداً ... أُقتـل ولا يضرر عدوّي مَشهَـدي
فَصـدفـتُ عنهـم والأحـبّـة فيهمُ ... طَمعًا لهم بعقـاب يوم مُرْصـدِ[5]

وهذا الذي سمعه رَتْبيل[6] فقال: يامعشرَ العرب، حسَّتم كل شيء فَحسُن حتى الفِرار.

(١) هو حيان بن الحكم، شاعر مخضرم صحابي، وكان صاحب راية بني سليم يوم الفتح.
(٢) لبستها، أي خلطتها. ونفضت لها يدي، كناية عن الإعراض عنها. والذي في الأصول.
(٣) تقص: تكسر. والمسند، الذي أمسك إلى ما يسنده وبه رمق.
(٤) يريد بالأشقر: الدم. والمزبد: الذي علاه الزبد.
(٥) يقول: أعرضت عنهم لطمعي في أن يعقب الله لي يوما يرصد الشر لهم ويمكنني منهم فأنتهز الفرصة. والذي في الأصول: «مفسد» مكان «مرصد». وهو تحريف. والذي في نهاية الأرب: «سرمد».
(٦) رتبيل، لقبٌ لملوك سجستان.

وقال آخر:

قامت تشجّعني هِندُ وقد علمت ... أنّ الشجاعةَ مَقرونٌ بها العَطبُ
لا والذي مَنَع الأبصارَ رُؤيته ... مَا يشتهي الموتَ عندي مَن له أدب
لِلحرب قومٌ أضَل الله سعيَهمُ ... إذا دَعتهم إلى نِيرانِيها وَثَبوا
ولستُ منهم ولا أبغي فِعالَهمُ ... لا القتل يُعجبني منهم ولا السَّلَب

وقال محمود الورَّاق :

أيها الفارسُ المُشيح[1] المُغيرُ ... إنّ قَلبي من السِّلاح يَطيرُ
ليس لي قُوة على رَهَج[2] الخَيـ ... ـل إذا ثَوّر الغُبار مُثير
واستدارت رحَى الحُروب بقَوم ... فقَتيلٌ وهاربٌ وأسير
حيثُ لا ينطِق الجبانُ من الذُّعر ... ويعلُو الصِّياحُ والتَّكبير
أنا في مثل ذا وهذا بَليد ... ولَبيب في غيره نِحرير

وقال أيمن بن خُرَيم :

إن للفِتنة مَيطاً[3] بَيِّناً ... فرُوَيدْ المَيط منها يَعتدل
فإذا كان عطاءً فأتمِّم ... وإذا كان قِتالٌ فاعتزل
إنّما يُوقدها جُهالها ... حَطبَ النار فدَعها تشتَعِل

ومما يحتج به الفَرَّارون ما قاله صاحبُ كَليلة ودِمنة : إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه، لأن النفقة فيه من النفس، والنفقة في غيره من المال.

أخذ هذا المعنى حَبيبُ الطائي فنَظمه في شعره حيث يقول:

كم بَين قومٍ إنّما نَفقاتهم ... مالٌ وقوم يُنفقون نُفوسا

وفرَّ عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث من الأزارقة وكان في عشرة آلاف، وكان قد بعث إليه المُهَلب: يابن أخي، خَندِق على نفسك وعلى أصحابك فإني عالم بأمر

---

(١) المشيح : الجاد الماضي في أموره.

(٢) الرهج : بفتحتين الغبار، انظر مختار الصحاح ص١٠٩.

(٣) ميطا: أي صخبا وشدة.

الخوارج ولا تَغتر. فبعث إليه: أنا أعلم بهم منك، وهم أهون عليَّ من ضَرطة الجمل. فبيَّته قَطري صاحب الأزارقة، فقتل من أصحابه خَمسمائة وفرّ لايلوي على أحد.

وقال أبو دُلامة: كنتُ مع مروان[١] أيام الضحّاك[٢] الحروري، فخرج فارس منهم فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم ثان فقتله، ثم ثالث فقتله فانقبض الناس عنه وجعل يدنو ويهدِر كالفحل المُغتلم. فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف؟ قال: فلما سمعتُ عشرة آلاف هانت عليَّ الدنيا وسَخوت بنفسي في سبيل عشرة آلاف وبرَزت إليه، فإذا عليه فَرْو قد أصابه المطر فارمَعل[٣]، ثم أصابته الشمس فاقفعل[٤]، وله عينان تَتقدان كأنهما جَمرتان. فلما رآني فهم الذي أخرجني، فأقبل نحوي وهو يرتجز ويقول:

وخارجٍ أخرجه حُبُّ الطمع فرَّ من الموت وفي الموت وقَع
من كان يَنوي أهله فلا رجع

فلما رأيته قنَّعت رأسي ووليت هارباً، ومروان يقول: من هذا الفاضح؟ لا يَفُتكم، فدخلت في غُمار الناس.

وقيل لأعرابي: ألا تغزو العدو؟ قال: وكيف يكونون لي عدوًّا وما أعرفهم ولا يعرفوني؟

وقيل لآخر: ألا تَغزو العدوّ؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أُحب إليه رَكضاً.

وممَّا قيل في الفرَّارين والجبناء من الشعر قولُ حسان بن ثابت يُعيِّر الحارث بن هشام بفراره يوم بدر.

إن كنتِ كاذبة الذي حدّثتني فَنجوتِ منجي الحارث هشام

(١) هو مروان بن محمد.
(٢) هو الضحاك بن قيس الشيباني الحروري.
(٣) ارمعل: ابتل.
(٤) أقفعل: تقبض.

تركَ الأحبَّة لم يُقاتل دُونهم ونَجا برَأس طِمِرَّة ولجام[١]
ملأت به الفرجين فارمدَّت به وثوى أحبّتُه بشرّ مُقام[٢]

وقال بعض العراقيين في رجل أكُول جَبان:

إذا صوّت العُصفور طار فؤاده وليث حديد النَّاب عند الثرائد

وليس يُعاب الشجاع والبُهمة[٣] البطل بالفَرّة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة، وقَليلة لا عادة، كما قال زُفر بن الحارث، وفَر يوم مَرج راهط[٤] عن أبيه وأخيه فقال:

أيذهب يومٌ واحد إن أسأتُه بصالح أيّامي وحُسن بلائيا
ولم تُرمنّي زلةٌ قبل هذه فِراري وتَركي صاحبيَّ ورَائيا

وفَر عمرو بن معد يكرب من عباس بن مِرداس السُّلمي، وأسر أخته ريحانه. وفيها يقول عمرو:

أمِن ريحانةَ الداعي السَّميعُ يُؤرقني وأصحابي هُجوعُ

وفَر عن بني عبس، وفيهم زهير بن جَذيمة العبسي، وولده شأس بن زُهير، وقيس ابن زُهير، ومالك بن زهير فقال فيهم:

أجاعلة أم الثُّوَير[٥] خَزايةً عليَّ فِراري إذ لَقيتُ بني عَبْس
لَقيت أبا شأسٍ وشأساً ومالكا وقيساً فجاشت من لِقائهمُ نفسي
لقُونا فضَمّوا جانبينا بصادقٍ من الطعن مثل النَّار في الحطب اليَبس
ولما دخلنا تحت فَيء رماحهم خَبَطتُ بكفّي أطلب الأرض باللَّمس
وليس يُعاب المرء من جُبن يَومه إذا عُرفت منه الشجاعةُ بالأمس

---

(١) الطمرة: الأنثى من الجياد، وهي المستفزة للوثب والعدو؛ وقيل: هي الطويلة القوائم. وقيل الطِّمِرُّ: الفرس الجواد الشديد العدو، انظر المعجم الوسيط ص ٥٦٥.

(٢) ملأت به الفرجين، كناية عن سرعة الفرس في نقل قوائمها حتى لا تترك سعة بينها. وأرمدت: أسرعت.

(٣) البهمة (بالضم): الشجاع الذي لا يهتدي من أين يؤتى.

(٤) مرج راهط: بنواحي دمشق.

(٥) أم الثوير: هي امرأة عمرو بن معد يكرب. وقيل هي: أم الحصين.

وقال أيضا:

ولقد أجمع رجلَيّ بها ... حَذَر الموت وإني لفرورْ
ولقد أعطفها كارهةً ... حين للنَّفْس من الموت هَرير[١]
كُل ما ذلك منيٍّ خُلقٌ ... وبكُلٍّ أنا في الرَّوْع جَدِير
وابن صُبْحٍ سادرًا[٢] يُوعِدني ... ما له في الناس ما عشت مُجير

وقال الحارث لامرأته، وذلك أنها نظرت إليه وهو يَحُدُّ حربة يوم فتح مكة، فقالت له: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتها لمحمد وأصحابه. فقالت: ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء! قال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم أنشأ يقول:

إن يُقبلوا اليوم فما بي عِله ... هذا سلاحٌ كامل وألّه[٣]
وذو غِرارين سريعُ السَّلة

فلما لقيهم خالدُ بن الوليد يوم الخَندمة[٤] انهزم الرجل، فلامته امرأته فقال:

إنك لو شَهدت يوم الخَندمه ... إذ فَرَّ صَفوان وفَرَّ عِكرمه[٥]
وأبو يَزيدَ[٦] قائم كالمُوتمه ... ولحَقتنا بالسيوف المُسلمه
يَفلقن كل ساعد وجُمجمه ... ضَربا فلا تَسْمع إلا غمغَمه
لهم نَهيتٌ[٧] خَلفنا وهَمهمه ... لم تنطِقي في اللَّوم أدنَى كَلِمه

وكان أسلم بن زُرعَة وجَّهه عُبيد الله بن زياد لحرب أبي بِلال الخارجي في ألفين،

---

(١) الهرير: الصياح، وهَريرُ الكلب صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد انظر الرازي ـ المصدر السابق ص٢٨٩.

(٢) سادرا، أي لا يبالي ما صنع.

(٣) الألة: الحربة لها سنان طويل.

(٤) الخندمة: جبل دخل منه النبي ﷺ مكة يوم الفتح.

(٥) يريد: صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وكانا هما وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا.

(٦) أبو يزيد: هو سهيل بن عمرو خطيب قريش. والموتمة: المرأة مات زوجها وترك لها أيتاما.

(٧) النهيت: الزئير والزحير.

وأبو بلال في أربعين رجلاً، فشدّوا عليه شدّة رجل واحد فانهزم هو وأصحابه؛ فلما دخل على ابن زياد عنفَّه في ذلك وقال: أتمضي في ألفين وتنهزم عن أربعين! فخرج عنه وهو يقول لأن يَذُمني ابنُ زياد حياً، خيرٌ من أن يمدحني ميتاً. وفي رواية أخرى: لأن يَشتمني الأمير وأنا حي، أحب إليّ من أن يدعو لي وأنا ميت.

ومثل ذلك قولُ عبد الله بن مُطيع بن الأسود العَدوى وكان فر يوم الحرةّ من جيش مُسلم بن عُقبة، فلما كان أيام حِصار الحَجّاج بمكة لعبد الله بن الزبير جعل يُقاتل أهل الشام ويقول:

أنا الذي فَررتُ يوم الحَرَّه ... والشيخُ لا يَفِرّ إلا مرَّه
فاليومَ أجزى فرَّة بكرَّه ... لا بأس بالكَرَّة بعد الفره

فلم يزل يقاتل حتى قُتل.

وأحسن ما قيل في الفِرار كلّه ما قال قيس بن الخطِيم:

إذا ما فَرَرنا كان أسوأَ فِرَارنا ... صُدودُ الخُدود وازورارُ المَناكِب
أجالِدهم يومَ الحَديقة[1] حاسِرًا ... كأنّ يدي بالسيف مخراق[2] لاعب

وفرّ عُتبية بن الحارث بن شهاب يومَ ثبرة[3] عن ابنه حزرة وقال:

ياحَسرتَا لقد لَقِيت حَسره ... بالتَميم غَشيتني غَمره
نِعم الفتى غادرته بثبره ... نَجَّيت نفسي وتركتَ حَزره
هل يترك الحرُّ الكريم بِكْرَه

---

(١) الحديقة: بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة وقاف وهاء بلفظ واحدة الحدائق، وهي البساتين. والحديقة: بستان كان بقنا حجر من أرض اليمامة لمسيلمة الكذاب. والحديقة أيضًا: قرية من أعراض المدينة في طريق مكة كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام وإياها أراد قيس بن الخطيم. انظر ياقوت الحموي ـ معجم البلدان جـ٢ ص٢٣٢ ـ دار صادر ـ بيروت.

(٢) المخراق: منديل أو نحوه يلوى فيُضرب به، أو يُلف فيفزع به.

(٣) ثبرة: بالفتح اسم ماء في وسط واد في ضبَّة، يقال لذلك الوادي الشواجن انظر ياقوت ـ المصدر السابق ـ جـ٢ ص٧٢.

وفـر أبـو خِراش الهُـذلي من فائـد وأصحـابـه ورصـدوه بعـرفـات، فقـال:

رَفَـوني وقـالـوا ياخُـويلد لا تُرع ... فقلتُ ـ وأنكـرتُ الوجوه ـ هُم هُمُ
وقلت وقـد جاوزتُ أصحـابَ فائد ... أأعجـزت أولى الخَيـل أم أنا أحلَم
فلولا أدِّراك الـشـدِّ قامـت حَليلتي ... تخيَّر من خُطابهـا وهـي أيِّـم
ولـولا أدِّراك الشر أتـلفت مُهجَتي ... وكـاد خِراشٌ يومَ ذلـك يُبـتـم

وفر خُبيب بن عوف يوم مرداء هَجر من أبي فُديك فقال:

بَذَلـت لهم ياقـوم حولي وقُـوتي ... ونُصحي وما ضَمّت يَدَاي من التبر
فلما تنـاهـى الأمـرُ بي من عدُوكم ... إلى مُهجتي وليتُ أعـداءكم ظَهري
وطِرت ولم أحفِـل[1] ملامـة عاجز ... يُقيم لأطـراف الرُّدينيـة[2] السُّمر
فلو كان لي رُوحـان عَرَّضت واحدًا ... لكـل رُديـني وأبـيض ذي أثـر[3]

وقيل لرجل جَبان في بعض الوقائع: تَقدَّم. فأنشأ يقول:

وقـالـوا تَقدَّم قُلت لـست بفـاعـل ... أخـافُ على فَخّـارتي أن تَحَطَّمَا
فلو كان لي رأسـان أتلفتُ واحـداً ... ولـكـنَّـه رأسٌ إذا راح أعـقـما
ولـو كان مُبتـاعـاً لدى الـسُّوق مثلُه ... فَعـلتُ ولم أحـفِـل بأن أتـقـدَّما
فأوتـم أولاداً وأرمِـل نِسـوةً ... فكـيـف على هذا تَرون التقـدُّمـا

وقال كعب بن زُهير:

بُخـلاً عليـنـا وجُـبنـاً من عَدوِّكُم ... لبِئست الخَلتـان: البُخـلُ والجُبُنُ

---

(١) لم أحفل: لم أبال.

(٢) الردينية: نسبة إلى ردينة، امرأة كانت تثقف الرماح.

(٣) الأثر: فرند السيف وجوهره.

فضائل الخيل

قال النبيّ ﷺ في صفة الخيل: «**أعرافها أدفاؤها، وأذنابها مذابها، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**عليكم بإناث الخيل، فإن بُطونها كَنز، وظُهورها حِرز، وأصحابها مُعانون عليها**»(٢).

وسأل رجل النبي ﷺ فقال: إني أريد أن أشتري فرساً أعده في سبيل الله. فقال له: **اشتره أدهم؛ أو كميتاً أقرح أرثم(٣) أو مُحجَّلاً مُطلق اليمين، فإنها مَيامن الخيل**(٤).

وقيل لبعض الحكماء: أي الأموال أشرف؟ قال: فَرَس يتبعها فرس في بطنها فرس.

صفة جياد الخيل

كان رسول الله ﷺ يَستحبُّ من الخيل الشُّقر(٥).

---

(١) روى البخاري ومسلم عن عروة البارقي أن النبي ﷺ قال: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم**». والمراد بالناصية هنا الشعر المسترسل على الجبهة.

(٢) الحديث لم أقف عليه.

(٣) الأقرح، من القرح (بالتحريك) وهو دون الغرة، وهو كل بياض كان في جبهة الفرس ثم انقطع قبل أن يبلغ المرسن (الأنف). والأرثم: من الرثم (بالتحريك) وهو كل بياض أصاب الجحفلة (الشفة) العليا، قل أو كثر، إلى أن يبلغ المرسن.

(٤) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي قتادة بنحوه وصححه الألباني انظر صحيح الجامع ٣٢٦٨.

(٥) رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود بلفظ «يُمن الخيل في الشُّقْر» وصححه الألباني/ صحيح الجامع ٨٠١٨ وفي هذه الأحاديث استحباب رباط الخيل واقتنائها للجهاد ضد أعداء الله وأن فضلها وخيرها والجهاد باق إلى يوم القيامة..

وسأله رجل: أي المال خير؟ قال: «**سِكَّة مَأبورة، ومُهرة مَأمورة**»(١).

وكان عليه الصلاة والسلام يَكره الشِّكال(٢) من الخيل(٣).

وقالوا: إنما سُميت خَيلاً لاختيالها.

ووصف أعرابي فرساً فقال: إذا تركته نَعَس، وإذا حَرَّكته طار.

وأرسل مُسلم بن عمرو لابن عَمّ له بالشام يشتري له خيلاً. فقال له: لا عِلم لي بالخيل. فقال: ألست صاحب قَنص؟ قال: بلى. قال: انظر كل شيء تستحسنه في الكَلب فاطلُبه في الفرس. فأتي بخيل لم يكن في العرب مِثلُها.

وقال بعضُ الضّبيين في وَصف فرس:

مُتقاذفٍ عبل الشوى شَنج النَّسا ... سَبَّاق أندية الجياد عَميثَل(٤)

وإذا تَعَلل بالسِّياط جيادُها ... أعطاك نائلَه ولم يَتعلَّل

سأل المهدي مَطَر بن دَرَّاج عن أي الخيل أفضلُ؟ قال: الذي إذا استقبلتَه قلت نافر، وإذا استدبرته قلت زاخر(٥)، وإذا استعرضته قلت زافر(٦). قال: فأيّ هذه أفضل؟ قال: الذي طرفه إمامه، وسوطه عنانه.

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ قال: «خير مال المرء له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة». انظر المسند ج٣ ص٤٦٨.

السكة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: الملقحة. والمأمورة: الكثيرة النسل والنتاج يقال: أمرهم الله فأمروا، أي كثروا. يريد: خير المال زرع أو نتاج.

(٢) الشكال: أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة، أو عكس ذلك وقيل بياض الرجل اليسرى واليد اليسرى.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب ما يكره من صفات الخيل (١٣/١٨) نووي.

(٤) المتقاذف: السريع الركض. وعبل الشوى: غليظ القوائم. والنسا: عرق من الورك إلى الكعب. وشنج النسا: منقبضة، وهو مدح للفرس، لأنه إذا سنج نساه لم تسترخ رجلاه. والعميثل: النشيط.

(٥) يريد أنك إذا استدبرته رأيته زاخر الكفل، أي ممتلئة، وذلك مما يمدح في الخيل.

(٦) لعل المراد بالزافر: العظيم الزفرة (بالضم)، وهي وسط الفرس؛ فما يمدح في الفرس أن يكون عظيم الجوف مجفر الجنبين.

وقال آخر[١]: الذي إذا مشى رَدَى[٢]، وإذا عَدَا دَحا[٣]، وإذا استُقبِل أقعى، وإذا استُدبِر جبَّى[٤]، وإذا استُعرض استوى.

وسأل معاوية بن أبي سفيان صعصع بن صَوحان[٥]: أي الخيل أفضل؟ قال: الطويل الثلاث، القَصير الثلاث، العريض الثلاث، الصَّافي الثلاث. قال: فَسر لنا. قال: أما الطويل الثلاث، فالأذن والعنق والحِزام، وأما القصير الثلاث، فالصُّلب والعَسيب والقَضيب. وأما العريض الثلاث، فالجبهة والمِنخر والوَرك؛ وأما الصافي الثلاث، فالأديم والعين والحافر.

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن معد يكرب: كيف معرفتك بعراب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده. فأمر بأفراس فعُرضت عليه. فقال: قدِّموا إليها الماء في التراس[٦]، فما شَرِب ولم يَكتِف[٧] فهو من العراب، وما ثَنى سُنبكه فليس منها.

قلت: إنما المحفوظ أنّ عمر شك في العِتاق والهجُن، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره. فأمر سَلمان بطَست من ماء فوضع بالأرض، ثم قدَّم إليه الخيل فرسا فرسا، فما ثنى سُنبكه وشرب هجَّنه، وما شرب ولم يثن سنبكه عرَّبه[٨].

---

(١) هو ابن أقيصر، أحد بني أسد بن خزيمة. (انظر الأمالي وعيون الأخبار).

(٢) الرديان: أن يرجم الأرض رجمًا بين المشي الشديد والعَدْو.

(٣) إذا كان الفرس في سيره يرمي بيده لا يرفع سنبكه عن الأرض قيل: يدحو دحوا.

(٤) جبى: انكب على وجهه.

(٥) نسب هذا الكلام أيضًا لأيوب بن القِريَّة، وقد سأله الحجاج عن صفة الجواد من الخيل. انظر نهاية الأرب جـ١٠ ص٢٠.

(٦) التراس: جمع ترس، وهو صفحة مستديرة تحمل للوقاية من سيف ونحوه.

(٧) كتف الفرس: ارتفعت فروع كتفه.

(٨) وذلك لأن في أعناق الهجن قصرا، فهي لا تنال الماء في تلك الحال حتى تثني سنابكها. وأعناق العتاق طوال.

وقال حسان بن ثابت يصف طول عنق الفرس:

بكـل كُميتٍ جَوْزه نصف خلقـه أقبّ طُوالٍ مُشرف في الحـوارك[١]

وقال زُهير:

ومُـلجَـمنـا ما إن يَنـال قَذالُـه ولا قَدمـاه الأرض إلا أنـامِـله[٢]

وقال آخر:

له ساقَـا ظَليـم خا ضبٍ فُوجـيء بالـرُّعـب[٣]
حديـد الـطَّرف والمـنـكـ ـب والـعُـرقُـوب والـقَـلب

وقال آخر[٤]:

هَريـتُ[٥] قصـير عِذاب الـلِّجـام أسـيـلٌ طَويـل عِذار الـرَّسـن[٦]

لم يُرد بقوله: «قصير عذار اللجام» قِصَر خده، وإنما أراد طولَ شقّ الفَم.

وأراد بطول عذار الرسن: طول الخد.

وقال آخر:

بكُـل هريـت نَقـيّ الأديـم طويـل الحِـزام قَصـيرالـلَّبب[٧]

وقال أبو عبيدة يُستدل على عِتق الفرس برقة جَحافله[٨] وأرنبته، وسَعة مِنخريه،

---

(١) الكميت: من الكمتة، وهي لون بين السواد والحمرة. وجوزه: وسطه. والأقب من الخيل: الدقيق الخصر الضامر البطن. والطوال: الطويل. والحوارك: أعالى الكاهل.

(٢) القذال من الفرس: معقد العذار خلف الناصية.

(٣) الظليم: ذكر النعام. والخاضب: الذي اغتلم فاحمرت ساقاه. وقيل: هو الذي أكل الربيع فاحمرت ساقاه.

(٤) هو تميم بن أي بن مقبل، أحد شعراء الجاهلية، مخضرم عاش مائة وعشرين سنة.

(٥) الهريت: الواسع الشدقين الطويل شق الفم.

(٦) الرسن: الزمام.

(٧) لبب الفرس: منخره.

(٨) الجحافل: جمع جحفل، وهي الشفقة.

وعُري نواهقه[١]، ودِقة حقويه وما ظهر من أعالى أذنيه، ورقّه سالفتيه وأديمه، ولين شعره. وأبينُ من ذلك كله لين شَكير[٢] ناصيته وعُرفه.

وكانوا يقولون. إذا اشتد نفَه، ورحبُ مُتنفسه، وطال عُنقه، واشتد حَقوه، وانهرت[٣] شدقه، وعظمت فخذاه، وانشبخت أنساؤه[٤]، وعظمت فُصوصه[٥]، وصَلبت حوافره ووقُحت: ألحِق بجياد الخيل.

قيل لرجل من بني أسد: أتعرف الفرس الكريم من المُقرف؟ قال: نعم؛ أما الكريم، فالجواد الجيد الذي نهز نهز العَير[٦]، وأنَف تأنيف[٧] السير، الذي إذا عدا أسلهب، وإذا أقبل أجعلب، وإذا انتصب اتلأب[٨].

وأما المُقرف: فإنه الذَّلول الحجبة[٩]، الضخم الأرنبة، الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا أرسلته قال: أمسِكني، وإذا أمسكته قال: أرسِلني.

وقال الشاعر في وصف فرس:

وأحمر كالديباج أمَّا سماؤه فريّا وأما أرضُه فمحُول

---

(١) يريد بالنواهق: الناهقين، وهما العظمان الشاخصان في مجرى الدمع.

(٢) الشكير: ما أطاف بالناصية من قصير الشعر، وهو ما يستدل به على العتق.

(٣) انهرت: اتسع.

(٤) الشبخ: تقلص الجلد والأصابع وغيرهما؛ يقال: فرس شبخ النسا، منقبضه، وهو مدح له. والنسا (بالفتح): عرق من الورك إلى الكعب.

(٥) الفصوص: جمع فص، وهو ملتقى كل عظمين.

(٦) يقال: نهزت الدابة، إذا نهضت بصدرها للسير. والعير: الحمار الوحشي.

(٧) المؤنف: المحدد من كل شيء؛ ومنه سير مؤنف، أي مقدود على قدر واستواء. يريد أن الفرس قد سوى خلقه على قدر كما يسوى السير المقدود من الجلد.

(٨) اسلهب: مضى، واجلعب: امتد على الأرض. واتلأب: رفع صدره ورأسه.

(٩) حجبة الفرس: ما أشرف على صفاق البطن من وركيه. وهو الذي ليس لحجبته إشراف فهي ملساء مستوية. وهذا هو المراد أيضا بكلمة «ذلول».

قوله سماؤه: أعلاه؛ وأرضه: أسفله. يريد قوائمه.

وللطائي نظير هذا حيث يقول:

مُبتل مَتن وصَهوتين إلى ... حَوافر صُلبةٍ له مُلُس[١]
فهو لَدى الرَّوع والحَلائب[٢] ذُو ... أعلى مُنَدًّى وأسفل يَبَس
أو أدهم فيه كمْتةٌ أمم[٣] ... كأنه قطعة من الغَلَس
صَهصَلق في الصَّهيل تَحسبه ... أُشرِج حُلقُومه على جَرَس[٤]

وقال حبيب أيضاً يصف فرساً أهداه إليه الحسن بن وهب الكاتب:

ما مُقرب[٥] يَختال في أشطانه ... ملآن من صَلف به وتَلهوق[٦]
بَحوافر حُفرٍ وصُلب صُلَّب ... وأشاعر شُعر وحَلق أحلق[٧]
وبشُعلة تَبدو كأن حُلولها ... في صَهوتيه بُدوُّ شَيب المَفرق[٨]
ذو أولق تحت العَجاج وإنما ... من صِحةٍ إفراطُ ذاك الأولق[٩]
تُغرَى العيونُ به ويُفلق شاعرٌ ... في نَعته عفوًا وليس بمُفلق[١٠]

---

(١) يصف الفرس بأنه ريان الأعلى ظمآن الأسفل.

(٢) الحلائب: جمع حلبة، وهي الخيل تجتمع للسباق.

(٣) الأمم: الشيء بين الشيئين.

(٤) صهصلق: شديد الصهيل. وأشرج: خيط.

(٥) المقرب من الخيل: الذي يدني ويقرب ويكرم.

(٦) الأشطان: الحبال؛ الواحد: شطن. والتلهوق: المبالغة في العجب والاختيال.

(٧) حفر، أي قوية تحفر الأرض من صلابتها. والصلب (بالضم): الظهر. وصلب: قوي. والأشاعر: ما استدار بالحافر من منتهى الجلد. وشعر: شديد وأحلق: واسع.

(٨) الشعلة: البياض.

(٩) الأولق: الجنون. يريد وصفه بشدة النشاط.

(١٠) مفلق: يجيء بما يعجب. يقول: إن هذا الفرس يجيد في وصفه من ليس بمجيد من الشعراء، لأنه ينظر منه إلى ما يروق ويعجب.

بمُصَعَّد من حُسنه ومُصوَّب ومُجَمَّع في خلقه ومُفرّق [١]
قد سالت الأوضاحُ [٢] سيلَ قَرارة فيه فَمُفترق عليه ومُلتقى
صافي الأديم كأنما ألبسته من سُندس ثوبا ومن إستبرق
مُسودَ شطر مثلما أسودَ الدُّجى مُبيضّ شطر كابيضاض المُهرق [٣]
فكأن فارسَه يُصرِّف إذ بدا في مَتنه ابنًا للصباح [٤] الأبلق
إمليسه إمليده لو عُلِّقت في صَهوتيه العين لم تتعلق [٥]
يُرقى وما هو بالسليم ويَغتدى دون السلاح سلاح أروع مُمْلِقِ [٦]

وقال أبو سُويد: شهد أبو دُلَف وقعة البَذّ [٧] وتحته فرس أدهم، وعليه نضح الدم. فاستوقفه رجل من الشعراء [٨]، وأنشد:

كم ذا تُجرعه المَنون ويسلمُ لو يستطيع شكا إليك الأدهمُ

---

(١) مصعده: أعلاه ومصوبه: أسفله. ومجمعه: وسطه. ومفرقه، كقوائمه وأذنيه ونحوهما. يقول: إن في الفرس أشياء يحمد اجتماعها فقد جمعت وأشياء يحمد افتراقها قد فرقت.

(٢) الأوضاح: جمع وضح (بالتحريك): البياض.

(٣) المهرق: ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه. يقول: إنه مقسوم على شعرة سوداء وشعرة بيضاء.

(٤) يصف الفرس ببنوته للصباح في بياضه.

(٥) إمليسه إمليده: أملسه أملده، أي لين ناعم. والعين: يريد بها التي تصيب الإنسان. وغيره من الحيوان، ويدل على ذلك قوله: «يرقى... إلخ» في البيت الآتي. يصفه بالملاسة والنعومة لأنها تدل على السلامة من العيوب.

(٦) يرقى، من الرقية. والسليم: الذي قد لدغ. قال التبريزي: «هذا الفرس يرقى لكرامته عند أهله». والأروع: الشجاع. والمملق، أي الذي لا سلاح له. يقول: إذا طلب الأعداء هذا الفارس كان الفرس سلاحا له، كما أنه إذا طلب هو عدوه أدركه.

(٧) البذ: كورة بين أذربيجان وأران، بها كان مخرج بابك الخرمي في أيام المعتصم. وقد ذهب إليه أبو دلف في جملة من كان مع الأفشين حيدر بن كاوس لمحاربته.

(٨) هو إسحاق بن خلف البهراني.

في كل مَنبِت شعرةٍ من جلده ... نَمَق يُنمّقه الحُسام المِخذم[١]
وكأنما عَقَد النجوم بطرفه ... وكأنه بعُرى المجرة مُلجم[٢]
وكأنه بين البَوارق[٣] لقوة[٤] ... شَقراء كاسرة طَوت ما تَطعم
ما تُدرك الأرواح أدنى سَيره ... لا بل يَفوت الريح فهو مُقدَّم
رَجعته أطراف الأسنّة أشقرًا ... واللونُ أدهمُ حين ضَرّجه الدَّم

قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ومن قولنا في وصف الفرس:

ومُقرَبة يَشقرُّ في النَّقع كمتُها[٥] ... ويَخضرّ حينًا كلما بلّها الرَّشحُ
تَطير بلا ريش إلى كل صَيحة ... وتَسبح في البَر الذي ما به سَبْح

وقال عديّ بن الرِّقاع:

يَخرجن من فُرُجات النَّقع داميةً ... كأن آذانَها أطرافُ أقلامِ

وطلب البُحتريّ الشاعر من محمد بن حُميد بن عبد الحميد الكاتب فرسًا، ووصف له أنواعا من الخيل في شعره فقال:

لأكلّفن العِيسَ أبعدَ همّةٍ ... يَجري إليها خائفٌ أو مُرتَجي
وإلى سَراة بني حُمَيد إنهم ... أمْسَوا كواكبَ أشرقت في مَذحِج
والبيتُ لولا أن فيه فَضيلةً ... تَعلو البُيوتَ بفَضلها لم يُحَجج
فأعِن على غزوِ العدوِّ بمُنطَو ... أحشاؤه طَي الرّداء المُدرج
إمّا بأشقر ساطعٍ أغشى الوَغى ... منه بمثل الكَوكب المُتأجّج
مُتسربل شِيةً طَلت أعطافَه ... بدَمٍ فما تَلقاه غيرَ مُضَرّج

---

(١) المخذم: القاطع.

(٢) يشير بهذا البيت إلى أنه مرتفع الرأس لا يخفضه.

(٣) البوارق: السيوف.

(٤) كذا في أكثر الأصول. واللقوة: أنثى العقبان.

(٥) المقربة من الأفراس: التي تدني وتقرب وتكرم، ويفعل ذلك بالإناث لئلا يقرعها فحل لئيم. وكمتها: من الكمتة، وهي الحمرة يخالطها سواد.

أو أدهم صافي الأديم كأنّه ... تحتَ الكميّ مُظهَّرٌ بيرَندج[١]
ضَرِمٍ يَهيجُ السوطُ من شُؤبوبه ... هَيجَ الجَنائب من حَريق العَرفج[٢]
خَفَّت مواقعُ وَطئه فلو انّه ... يجرى برملةِ عالجٍ لم يُرهِج[٣]
أو أشهب يَقَقٍ يُضيء وراءَه ... مَتنٌ كمتن اللجّة المُتَرجرج
تَخفى الحُجولُ ولو بَلغن لبانَه ... في أبيضٍ مُتألِّق كالدُّملج[٤]
أوفى بعُرفٍ أسودٍ مُتفرِّد ... فيما يَليه وحافر فَيروزَجي
أو أبلقٍ ملأ العُيون إذا بدَا ... من كل لونٍ معجب بنمُوذَج
جَذلان تحسُده الجيادُ إذا مَشى ... عَنَقا[٥] بأحسن حُلة لم تُنسج
وعَريض أعلى المَتن لو عَلَّيتَه ... بالزِّئبق المُنهال لم يَترجرج
خاضت قوائمُه الوثيق بناؤها ... أمواجَ تَحنيب[٦] بهنَّ مُدَرَّج
ولأنت أبعدُ في السَّماحة هِمَّةً ... من أن تَضِن بمُوكف[٧] أو مُسرَج

وأول من شبه الخيلَ بالظبي والسِّرحان والنعامة وتَبعه الشعراء وحَذَوا حذوَهُ وعلى مثاله، امرؤُ القيس بن حُجر، فقال في الفَرس:

---

(١) اليرندج: السواد يسود به الخف، أو هو الزاج يسود به.

(٢) الشؤبوب: شدة العدو. والجنائب: جمع جنوب، وهي من الرياح: التي تقابل الشمال. والعرفج: ضرب من النبات سهلى طيب الريح، ولهبه شديد الحمرة، ويبالغ بحمرته، فيقال: كأن شعره ضرام عرفجة.

(٣) عالج: رمال بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيىء، وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة، ولم يرهج: أي لم يثر الغبار من خفة وطئه.

(٤) اللبان: الصدر. والدملج: حلى يلبس في المعصم.

(٥) العنق: ضرب من السير فسيح سريع.

(٦) التحنيب: احديداب في وظيفي يدى الفرس، ويوصف صاحبه بالشدة؛ وقيل. هو بُعْدُ ما بين الرجلين من غير فجج، وهو مدح.

(٧) الموكف: الذي وضع عليه الوكاف، وهو البرذعة.

له أيْطلا ظَبي وسَاقَا نَعامةٍ ... وإرخاء سِرحانٍ وتَقريبُ تَتْفُل[١]
كأنّ على المَتنين منه إذا انتَحى ... مَداكَ عَروسٍ أو صَلايةَ حَنظَل[٢]
مكرٍّ مفرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ مَعاً ... كجُلمود صَخرٍ حطّه السيلُ من عَل
دَرير كخُذروف الوليد أمرَّه[٣] ... تتابُع كفّيه بخيط مُوصَّل
كُميتٍ يَزِلّ اللِّبدُ عن حال مَتنه ... كما زَلّت الصَّفواء بالمتنزّل[٤]

فأخذت الشعراء هذا التشبيه من أمريء القيس فَحَذوا عليه، فقال طُفيل الخَيل:

إنّي وإن قل مالي لا يُفارقني ... مثلُ النّعامة في أوصالها طُولُ
تَقريبها المَرَطي والجَوز مُعتدل ... كأنه سُبَد بالماء مَغسول[٥]
أو ساهِم الوَجه لم تُقطع أباجلُه ... يُصان وهو ليوم الرَّوع مَبذول[٦]

وقال عبد الملك بن مَروان لأصحابه: أي المَناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مَناديل

---

(١) الأيطل: الخاصرة. والإرخاء: شدة العدو. والتقريب: أن يرفع الفرس يديه معا ويضعهما معا في عدوه. وقيل: إذا رجم الأرض رجما فهو التقريب. والسرحان: الذئب. والتتفل: ولد الثعلب.

(٢) المتنان: ما اكتنفا فقار الظهر. وانتحى: اعتمد وقصد. والمداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب. والصلاية: الحجر الأملس الذي يسحق عليه حب الحنظل ونحوه.

(٣) الدرير: الفرس السريع العدو. والخذروف: عود أو قصبة مشقوقة يفرض في وسطه ثم يشد بخيط، فإذا أمر دار وسمعت له حفيفا، يلعب به الصبيان. ويشبه به الفرس في سرعته. وأمره: قلبه ثم أداره بين كفيه.

(٤) الكميت: ما خالط حمرته سواد. والحال: وسط الظهر. يريد وصف ظهره بالملامسة فإذا ألقى عليه اللبد زل فلم يثبت عليه. والصفواء: الصخرة الملساء التي لا يثبت فيها شيء. والمتنزل: الذي ينزل عليها فيزلق عنها.

(٥) التقريب: أن يرفع الفرس يديه معا ويضعهما معا في عدوه. وقيل: إذا رجم الأرض رجما فهو التقريب. والمرطي: فوق التقريب. والجوز: الوسط. والسيد: ثوب يسد به الحوض المركو لئلا يتكدر الماء، يفرش فيه وتسقى الإبل عليه.

(٦) ساهم الوجه: عابسه، وهي صفة ممدوحة في الخيل. والأباجل: جمع أبجل، وهو عرق غليظ في الرجل، وهو في الفرس بمنزلة الأكحل من الإنسان.

مصر التي كأنها غرقيء[١] البَيض. وقال بعضُهم: مَناديل اليَمن التي كأنها أنوارُ الربيع. فقال: ما صنعتم شيئاً، أفضل المناديل عَبْدة[٢] بن الطَّبيب حيث يقول:

لَمّا نَزلنا ضَربنا ظِل أخبيةٍ[٣] ... وفارَ باللَّحم للقوم المَراجيلُ
وَردًا وأشقرَ[٤] لم يُنهِئه[٥] طابخُه ... ما قارَبَ النُّضجَ منها فهو مأكول
وقد وَثَبنا على عُوجٍ مُسوَّمة[٦] ... أعرافُهن لأيدينا مَناديل

سوابق الخيل

وقال الأصمعي: ماسَبق في الرهان فرس أهضم[٧] قطّ. وأنشد لأبي النَّجم[٨].

مُنتفجُ[٩] الجَوف عَريضٌ كَلكَلُه

قال: وكان هشام بن عبد الملك رجلاً مُسبِّقاً لا يكاد يَسبق، فسبقت له فرس أنثى وَصلَّت أختُها[١٠]، ففرح لذلك فرحاً شديداً وقال: عليّ بالشعراء قال أبو النَّجم: فدُعينا فقيل لنا: قُولوا في هذه الفرس وأختها. فسأل أصحابُ النشيد النَّظِرة حتى

---

(١) غرقيء البيضة: القشرة الملتزقة ببياضها.

(٢) اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة.

(٣) يريد أنهم بنوا أرديتهم فوق رماحهم كما تبنى الأخبية يستظل بها.

(٤) يريد بالورد: ماأخذ فيه النضج من اللحم؛ وبالأشقر: ما لم ينضج.

(٥) لم ينهئه، أي لم ينضجه، العرب لا تنضج اللحم، إما لاستعجالها للضيف، وإما لأن ذلك مستحب عندها.

(٦) المسومة: المعلمة.

(٧) الهضم (في الخيل): استقامة الضلوع وانضمام أعالي البطن واستقامتها ودخول أعاليها، وهو عيب.

(٨) هو الفضل بن قدامة، الراجز المعروف.

(٩) الانتفاج (بالجيم): نحو من الانتفاخ، إلا أن الانتفاخ (بالخاء) عن علة وداء، والانتفاج (بالجيم): من خلقه وسمن.

(١٠) وصلت: جاءت تالية للسابق.

يقولوا. فقلت له: هل لك في رجل يَنقُدك إذا استنسئوك؟ قال: هات. فقلتُ: من ساعتي:

أشاعَ للغَرّاء فينا ذكرَها ... قوائمٌ عُوجٌ أطعنَ أمرَها
وما نَسينا بالطريق مُهرها ... حين نَقيسُ قدره وقدرها
وصَبره إذا عدا وصَبرها ... والماءُ يعلو نحره ونَحرها
مَلمومةُ[1] شدَّ المَليكُ أسرها ... أسفَلها وبطنَها وظَهرَها

قد كاد هاديها[2] يكون شَطرَها

قال أبو النجم: فأمر لي بجائزة وانصرفت.

أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد وأبو الحسن على بن جعفر البَصري قالا: حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: أن هارون الرشيد رَكب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة. قال الأصمعي: فدخلتُ الميدانَ لشُهودها فيمن شَهد من خواص أمير المؤمنين، والحَلبة يومئذ أفراس للرشيد ولوَلديه الأمين والمأمون ولسُليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر. فجاء فرسٌ أدهمُ، يقال له الربذ[3] لهارون الرشيد، سابقاً. فابتهج لذلك ابتهاجاً عُلم ذلك في وجهه وقال: عليّ بالأصمعي. فنوديتُ له من كل جانب. فأقبلتُ سريعاً حتى مثلت بين يديه. فقال: ياأصمعي: خُذ بناحية الرَّبذ ثم صفه من قونَسه إلى سُنبكه[4]، فإنه يقال: إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير. قلت: نعم ياأمير المؤمنين، وأنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حزرة[5]. قال: فأنشدنا الله أبوك. قال: فأنشدته:

---

(١) ملمومة، أي مجتمعة الخلق. الأسر: شدة الخلق.

(٢) الهادي: العنق. يريد وصفه بالطول.

(٣) الربذ من الخيل: السريع. ورَبذَ: خفَّت رجله في المشي وخَفَّت يده في العمل فهو ربذ. انظر المعجم الوسيط ص٣٢٢.

(٤) أي من أعلى رأسه إلى طرف حافره.

(٥) هي كنية جرير بن عطية الخطفي، الشاعر المشهور.

وأقبّ كالسِّرحان تَمّ له ما بينَ هامته إلى النّسرِ

الأقبّ: اللاحق المُخطَف البَطن[١]، وذلك يكون من خِلقة، وربما حدث من هُزال أو بُعد قَود[٢]، والأنثى قَبّاء، والجمع: قُبّ، والمصدر: القَبب. والسِّرحان: الذِّئب، شبهه في ضموره وعدوه به، وجمعه سراحين، وقد قالوا: سِرَاح[٣]. والهامة: أعلى الرأس، وهي أم الدّماغ؛ وهي من أسماء الطير. والنَّسر: هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه، كأنه النَّوى والحَصى، وهو من أسماء الطير، وجمعه نسور.

رحُبت نَعامته ووفّر فرخه وتمكن الصُّردانِ في النَّحرِ

رحُبت: اتسعت. ونعامته: جلدة رأسه التي تُغطى الدماغ، وهي من أسماء الطير. وقوله: «ووُفِّر فرخه». الفرخ: هو الدماغ، وهو من أسماء الطيور. ووُفِّر: أي تُمم؛ يقال: وَفَرت الشيء ووفرته (بالتخفيف) فهو موفور. والصُّردان: عِرقان في أصل اللسان، ويقال: إنهما عرقان أخضران مُكتنفان باطن اللسان، يجري منهما الريق ونَفَس الرئة، وهما من أسماء الطير. وفي الظهر صُرد (أيضا)، وهو بياض يكون في موضع السَّرج من أثر الدَّبَر[٤]؛ يقال: فرس صَرِد، إذا كان ذلك به. والنحر: موضع القلادة من الصدر، وهو البَرك.

وأناف بالعُصفور من سَعَف هامٍ أشمَّ موثَّق الجَذر

أناف: أشرف. والعُصفور: أصل منبت الناصية والعُصفور (أيضا): عظم ناتيء في كل جبين والعُصفور: من الغُرر (أيضا)، وهي التي سالت ودقت ولم تتجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقُرحة، وهو من أسماء الطير والسَّعف، يقال: فرس بَيِّن السعف، وهو الذي سالت ناصيته. وهامٍ، أي سائل منتشر. وأشمّ: مرتفع. والشّمم في الأنف: ارتفاع قصبته. ويروى: «هادٍ أشم» يريد عُنقا مرتفعا، وجمعه:

---

(١) مخطف البطن: منطويه.

(٢) القود: طول الظهر والعنق.

(٣) سراح، بفتح السين وكسرها.

(٤) الدبر: جمع دبرة (بالتحريك)، وهي قرحة الدابة.

هوادٍ، وقوله: موثّق، أي شديد قوي. والجذر: الأصل من كل شيء. قال الأصمعي وغيره: هو بالفتح؛ وقال أبو عمرو بن العلاء: هو بالكسر.

وازدان بالـدِّيـكـين صَلصَـلُه ونَبـت دَجـاجـتـهُ عن الـصَّـدر

ازدان: افتعل، من قولك زان بزين، وكان الأصل ازتان، فقلبت التاء دالا، لقرب مخرجها من مخرج الزاي، وكذلك ازداد، من زاد يزيد. والديكان واحدهما ديك، وهو العظم الناتيء خلف الأذن، وهو الذي يقال له الخُشْشاء والخُشّاء. والصلصل: بياض في طرف الناصية، ويقال: هو أصل الناصية. والدَّجاجة: اللحم الذي على زَوره بين يديه. والدِّك والصَّلصل والدَّجاجة، من أسماء الطير.

والـنَّـاهِـضـان أُمـرّ جَلزُهمـا فكـأنـمـا عُثـما على كَسر

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكبين؛ ويقال: هو اللحم الذي يلي العَضُدين من أعلاهما، والجمع نواهض، ويقال في الجمع: أنهُض، على غير قياس. والناهض: فرخ القطا، وهو من أسماء الطير. وقوله: أمرّ جلزُهما، أي فُتلَ وأحكم؛ أمررتُ الحبل فهو مُمر، أي فَتلته. والجَلْز: الشد. وقوله:

فكـأنمـا عُثِمـا علـى كَسـر

أي كأنهما كُسرا ثم جُبرا. يقال: عَثمت يدُه. والعَثم: الجبر على عُقدة وعَوج؛ وعثِمان، فُعلان منه.

مُسـحَـنـفـرُ الجـنـبَـين مُلتئـم ما بين شِيـمـتـه إلى الـغُـرّ

مسحنفر الجنبين: أي منتفخها. مُلتئم، أي معتدل. وشِيمته: نَحره[1]. والشِّيمة، أيضا: من قولك: فرس أشيم، بيّن الشِّيمة، وهي بياض فيه؛ ويقال: أن تكون شامة أو شام في جسده. والغُر في الطير: الذي يسمى الرخمة، وهي عضلة الساق.

وصَـفـت سُمانـاه وحـافِـزه وأديـمـهُ ومَـنـابـتُ الـشَّـعـر

---

(١) الشيمة: من قولك: فرس أشيم: بين الشامة.

السُّمانَى: طائر، وهو موضع من الفرس لا أحفظه، إلا أن يكون أراد السَّمانة، وهي دائرة تكون في سالفة الفَرس، وهي عُنقه، والسَّمامة، من الطير أيضاً. والأديم: الجلد.

وسَمَا الغُراب لَموقعيه معاً فأُبين بينهما على قَدر

سما الغراب، أي ارتفع. والغراب: رأس الورك. ويقال للصَّلَوين: الغرابان، وهما مُكتنفا عجب الذنب[1]. ويقال: هما مُلتقى أعالى الوركين. والموقعان، منه في أعالى الخاصرتين. فأبين، أي فُرِّق بينهما. على قدر، أي على استواء واعتدال.

واكتنّ دون قَبيحه خُطَّافه ونأت سَمامته عن الصَّقر

اكتن: أي استتر. والقبيح: ملتقى الساقين، ويقال: إنه مُركَّب الذراعين في العضدين. والخُطاف: من أسماء الطير، وهو حيث أدركت عَقبُ الفارس إذا حرك رجليه. ويقال لهذين الموضعين من الفرس: المَركلان. ونأت، أي بعدت. والسَّمامة: دائرة تكون في عُنق الفرس، وقد ذكرناها، وهي من أسماء الطير. والصقر: أحسبها دائرة في الرأس، وما وقفت عليها، وهي من أسماء الطير.

وتقدَّمت عنه القطاةُ له فنأتْ بموقعها عن الحُرّ

القطاة: مَقعد الردف، وهي من أسماء الطير. والحُر: من الطير، يقال إنه ذكر الحمام، وهو من الفرس، سواد يكون في ظاهر أذنيه.

وسَما على نَقويه دون حِداته خَربان بينهما مَدى الشِّبر

النَّقوان: واحدهما نَقو، والجمع. أنقاء، وهو عظم ذو مُخ، وإنما عَنَى هاهنا عِظام الوَركين، لأن الخَرَب هو الذي تراه مثل المُدهُن في ورك الفرس. وهو من الطير: ذَكرُ الحُبارى. والحِداة: من الطير، وأصله الهمز، ولكنه خُفف، وهي سالفة الفرس، وجمعها حداء، على وزن فعال، كما تقول: عَظاءة وعظاء، ويقال: عظاية. وإذا فتحت الفاء قلت: حَدأة، وهي الفأس ذات الرأسين، وجمعها: حَدأ، مثل نَواة ونوى، وقطاة وقطا.

---

(١) عجب الذنب: أصله، وهو العصعص.

يَدع الـرَّضـيـم إذا جرى فِلقًا بتـوائـمٍ كمـواسـمٍ سُمـر

الرَّضيم: الحجارة. والفِلَق: المكسورة فِلقا. بتوائم: جمع توأم، وقد قالوا. تُؤم، على وزن فُعَل، جمع توأم، وهي على غير قياس. يقول: هي مَثنى مثنى، يعني حوافره.

والمـواسم: جمع مِيسم الحـديد، من وسمت، أي إنها كمـواسم الحـديد في صلابتها. وقوله: سمر، أي لون الحافر، وهو أصلب الحوافر.

رُكِّـبْـنَ في محص الـشـوى سَبط كَفـتِ الـوثـوب مُشـدَّد الأسر

الشوى، هاهنا: القوائم، والواحدة: شَواة. ويقال: فرس مَحص الشوى، إذا كانت قوائمه معصوبة. سَبط: سهل. كفت الوثوب، أي مجتمع، من قولك: كَفَتُّ الشيء، إذا جمعته وتمّمته. مشدّد الأسر، أي الخلق.

قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

وسبق يوما فرسٌ للرشيد يُسمى المُشمر، وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر ابني يحيى بن خالد البرمكي، فقال أبو العتاهية:

جاء المُشمَّـر والأفـراس يَقـدُمهـا هَونًا على سُرعـة منهـا ومـا انتهَـرا
وخلَّف الـريـح حَسرى وهي تتبعه ومَـرَّ يَختـطف الأبصـار والنَّـظرا

وقال أبو النجم في شعر يصف الفرسَ، وهو أجود شعر يصف الحَلبة:

ثم سمـعـنـا برهـان نأمـله قِيْدَ له من كل أفـق جحفُـله[1]
فقـلتُ للسـائس قُدهُ أعـجـلهُ[2] وأغـدُ لعنّـا[3] في الـرهـان نُرسله
فظل مجنـوبـا وظـل جمله بين شعـيـبـين وزادٍ يزمُـلُه[4]

---

(١) الجحفل: الجيش الكثير، ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خيل.

(٢) أراد «أعجله» بإسكان اللام، فلما وقف على الهاء فسكنها ألقى حركتها على اللام ليستقيم الروى.

(٣) لعنا، لغة في لعلنا: ويروى، لعلنا، بإسكان اللام.

(٤) مجنوبا: لا يركب. وجمله يزمله: أي يحمل الزاد والعلف. وشعيبين، أي مزادتين.

نَعلو به الحَزْن ولا نُسهله[١] ... إذا علا الأخشب صاح جندله[٢]
ترنُّم النُّوح تبكي مُثكِله[٣] ... كأن في الصوت الذي يُفصله
زُمَّار دُفٍّ يتغنى جُلجله ... حتى وردنا المِصر يُطوى قنبلُه[٤]
طَيّ التجار العصب إذ تنخّلُه[٥] ... وقد رأينا فعلهم فنفعله
نَطويه والطَّي الرقيق يجدله[٦] ... نُضَمِّرُ الشحم ولسنا نهزله
حتى إذا الليل تولى أثجلهُ[٧] ... وأتبع الأيديَ منه أرجلُه[٨]
قمنا على هول شديد وجلُه ... نَمُدُّ حبلا فوق خطّ نَعدله[٩]
نقوم قَدِّم ذا وهذا أدخله ... وقام مشقوق القَميص يُعجله
فوق الخُماسيِّ[١٠] قليلاً يَفضُله ... أدرَك عقلاً والرهانُ عَمله

---

(١) لانسهله، أي لا نصير به إلى السهل. وإنما أراد لا نسهل به، فحذف الحرف وأوصل. وهو على حد قول غيلان الربعي يصف حلبة.

وأسهلوهن دقاق البطحا

أراد: وأسهلوا بهن.

(٢) الجندل: الحجارة. يشير إلى صوت حوافره عليها.

(٣) النوح: الجماعة من النساء تنوح. والمثكل: التي ثكلت ولدها.

(٤) الجلجل: الجرس. والقنبل: الطائفة من الخيل. والضمير فيها يعود على «المصر». يريد أننا وردنا المصر وفيه جماعات الخيل تضمر استعداداً للرهان.

(٥) العصب: ضرب من البرود. وتنخله: تختاره.

(٦) يجدله، أي يُحْكِمُ فتل عضلاته ويحسن طيها.

(٧) الأثجل: القطعة الضخمة من الليل.

(٨) أتبع: تبع. يريد أن أرجله قد تبعت أيديه. يصف مرور الليل وتوليه، مشبها له في مضيه بالفرس في عدوه.

(٩) يريد الحبل الذي ينصب قبل إرسال الخيل ويجعل في صدورها لتكون متساوية عند الإرسال. ويسمى: المقوس أو المقبض.

(١٠) يقال: غلام خماسي، وذلك إذا كان طوله خمسة أشبار.

حتى إذا أدرك خيلاً مُرسله ... ثار عَجاجٌ مُستطير قَسطُله[١]
تنفُش منه الخيلُ مالا تَغزله ... مَرًّا يُغطيها ومَرًا تُنعله[٢]
مَرَّ القَطا انصبَّ عليه أجدَلُه ... وهو رَخيٌّ البال ساجٍ[٣] وَهلُه
قَدَّمه مثلاً لمن يَمتثله ... تُطيره الجن وحيناً تُرجله
تَسبح أخراه ويَطفو أوّله ... ترى الغلام ساجياً ما يَركُله
يُعطيه ما شاء وليس يَسأله ... كأنه من زَبَد يُسَربله[٤]
في كُرْسُف النَّدَّاف لولا بَلله ... تَخالُ مِسكاً عَلَّه مُعلَّلُه[٥]
ثم تَناولنا الغُلام نُنزله ... عن مُفرع الكِتفين[٦] حُلو عَطَله[٧]
مُنتفج[٨] الجوف عَريض كلكله ... فوافت الخيلُ ونحن نَشكُله
والجنّ عُكاف به تُقبّله

وقال آخر في فَرس أبي الأعور السُّلمي[٩] :

مَرَّ كلمع البرق سامٍ ناظِرُه ... تَسبح أولاه ويَطفو آخِرُه
فما يَمَس الأرض منه حافرُه

وقول هذا أشبه من قول أبي النَّجم، لأنه يقول:

تَسبح أخراه ويطفو أوّله

---

(١) والقسطل: الغبار الساطع.
(٢) تنعله، أي تجعل الغبار تحت أرجلها كالنعل.
(٣) الساجي: الساكن. والوهل: الفزع.
(٤) يسربله: يلبسه. يشبه الزبد، وقد عم جسمه، باللباس يغطي الجسد.
(٥) الكرسف: القطن. والنداف: الذي يندف القطن بالمندف، أي يطرقه.
(٦) مفرع الكتفين: عليهما.
(٧) العطل: العنق. وقيل: عطله: ضمره.
(٨) الانتفاج: الانتفاخ من خلقة وسمن.
(٩) أبو الأعور، هو عمر بن سفيان.

وقال الأصمعي: إذا كان الفرس كما قال أبو النَّجم فحِمَار الكَسَّاح[١] أسرع منه، لأن اضطراب مُؤخره قبيح.

وقال الأصمعي كان أبو النجم وَصافاً للخيل إلا أنه غلط في هذا البيت، وقد غَلط رُؤبة أيضاً في الفرس، فقال يصف قوائمه:

يَهوين شَتَّى وَيقعن وَفقاً[٢]

ولما أنشده مُسلم بن قُتيبة. قال له: أخطأت في هذا ياأبا الجَحافَ، جعلته مُقيّداً. فقال: قَربني من ذَنب البعير[٣].

وأنشد الأصمعي:

قد أطرُق الحيَّ على سابحٍ ... أسطَعَ[٤] مثل الصدع[٥] الأجرد

لما أتيتُ الحيَّ في مَتنه ... كأنّ عُرجوناً بمَثنَى يَدِي

أقبل يَختال على شَأوه ... يَضرب في الأقرب والأبعد

كأنه سَكرانُ أو عابِسٌ ... أو ابنُ ربّ حَدَثُ المَولِد

وقال غيره:

أما إذا استَقبَلتُه فكأنّه ... جِذعٌ سَما فوق النَّخيل مُشذَّبُ

وإذا اعترَضت له استوَت أقطارُه[٦] ... وكأنه ـ مُستدبرًا ـ مُتَصوِّب

وقال ابن المُعتز:

وقد يحضُر الهيجاءَ بي شَنجُ النَّسا[٧] ... تَكامَل في أسنانه فهو قارِحُ[٨]

---

(١) الكساح: الكناس.

(٢) والوفق: كل شيء يكون متفقا على نمط واحد.

(٣) يشير بهذه العبارة إلى أنه يحسن وصف الإبل دون الخيل.

(٤) السابح. الفرس، لسبحه بيديه. والأسطع: الطويل العنق.

(٥) الصدع من الأوعال والإبل والحمر: الفتى الشاب القوي.

(٦) الأقطار: النواحي، الواحد: قطر (بالضم).

(٧) شنج النسا، أي متقبضة. والنسا: عرق من الورك إلى الكعب.

(٨) القارح: الفرس في الخامسة من عمره، وهو بمنزلة البازل من الإبل.

له عُنُـق يَغـتـال طولَ عِنـانـه ... وصَـدرٌ إذا أعـطيتـه الجـرى سابِح
إذا مال عن أعـطافـه قُلت شارب ... عَنـاه بتَصريف المُـدامـة طافِـح

وقال أيضـاً:

ولـقـد وَطِئتُ الـغَيث[1] يَحملني ... طِرفٌ كَلون الـصُّبـح حين وَقَـد
يَمشي فيـعـرِض في الـعِنـان كما ... صَدَف المُعشَّق ذو الـدَّلال وصَـدّ
طارت به رِجـلٌ مُرصَّـعـة ... رجَّـامـةٌ لِحصى الـطريق ويـدَ
فكـأنـه مَوج يَسـيـل إذا ... أطـلقَـتَـه وإذا حَبَـسـت جَمَد

الحلبـة والرهـان

والحَلْبة: مَجمع الخيل. ويقال: مُجتمع الخيل. ويقال: مُجتمع الناس للرِّهان. وهو من قولك: حلب بنو فلان على بني فلان وأحلبوا، إذا اجتمعوا. ويقال منه: حلَب الحالب اللبنَ في القَدَح، أي جمعه فيه. والمِقْوَس: الحبل الذي يُمدَ في صدور الخيل عند الإرسال للسباق. والمُنَصَّبة: الخيل حين تُنصَّب[2] للإرسال.

وأصل الرّهان من الرّهن؛ لأن الرجل يُراهن صاحبه في المُسابقة، يَضع هذا رهنًا وهـذا رهنًا، فأيهما سبق فرسُه أخذ رهنه ورهن صاحبه. والرِّهان: مصدر راهنتُه مُراهنة ورِهانـاً، كما تقول: قاتلتُه مقاتلة وقتالا. وهذا كان من أمر الجاهليّة، وهو القمار المنهي عنه، فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مُسمى، على أنه إن سبق لم يكن له شيء، وإن سبقه صاحبهُ أخذ الرهن، فهذا حلال، لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر. وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهنـاً وأدخلا بينهما مُحلِّلا، وهو فرس ثالث يكون مع الأولين، ويسمى أيضاً الدَّخيل، ولا يُجعل لصاحب الثالث شيء، ثم يُرسلون الأفراس الثلاثة، فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه، فكان له طيّبـاً، وإن سبق الدّخيل أخذ الرَّهنين جميعـاً، وإن سُبق هو لم يكن عليه شيء.

---

(١) يريد النبات حيث يكتر الصيد. (٢) تنصب: تقام وتعد بعضها إلى جانب بعض.

ولا يكون الدخيل إلا رائعاً جواداً، لا يأمنان أن يَسبقهما، وإلا فهذا قِمار لأنهما كأنهما لم يُدخلا بينهما محلّلا.

قال الأصمعي: السابق من الخيل: الأول، والمُصَلِّي: الثاني الذي يتلوه. قال: وإنما قيل له مُصلٍّ، لأنه يكون عند صَلَوي السابق، وهما جانبا ذَنبه عن يمينه وشِماله[1]. ثم الثالث والرابع لا اسم لواحد منهما إلى العاشر، فإنه يسمى سُكيتاً. قال أبو عبيدة: لم نَسمع في سوابق الخيل ممن يُوثق بعلمه اسماً لشيء منها إلا الثاني والعاشر، فإن الثاني اسمه المُصَلِّي، والعاشر السُّكيت، وما سوى ذينك يقال: الثالث والرابع، وكذلك إلى التاسع، ثم السُّكيت. ويقال السُّكيت (بالتشديد والتخفيف). فما جاء بعد ذلك لم يعُتد به. والفِسْكل، بالكسر: الذي يجيء آخر الخيل، والعامة تسميه الفُسكل، بالضم. وقال أبو عُبيدة: القاشور: الذي يجيء في الحَلبة آخر الخيل، وهو الفِسكل، وإنما قيل للسُّكَيت سُكَيت، لأنه آخر العدد الذي يقف العادّ عليه. والسَّكت: الوقوف. هكذا كانوا يقولون، فأما اليوم فقد غيّروا.

وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق قال جرير:

إذا شِئتم أن تمسحوا وجه سابقٍ ... جَوادٍ فمدوا في الرهان عنانيا

ومن قولنا في هذا المعنى:

وإذا جيادُ الخَيل ماطلها المَدَى ... وتَقطَّعتْ في شَأْوها المَبْهورِ

خَلوا عناني في الرهان ومسَّحُوا ... مِني بغُرة أبلق مَشهور

(١) ويطلق الصلا أيضا: على وسط الظهر وما انحدر من الوركين والفرجة بين الجاعرة والذنب.

وصف السلاح

كانت دِرْع عليّ رضي الله عنه صدرًا لاظهر لها فقيل له في ذلك. فقال: إذا استمكن عدوّي من ظهري فلا يُبْقي.

ورُئي الجرّاح بن عبد الله قد ظاهر بين دِرعين. فقيل له في ذلك. فقال: لست أقي بدني وإنما أقي صبري

واشترى زيد بن حاتم أدراعاً وقال: إني لستُ أشترى أدراعاً وإنما أشترى أعماراً.

وقال حبيب بن المُهلَّب لبَنيه لايقعدن أحدكم في السوق، فإن كنتم لابد فاعلين فإلى زَرَّاد، أو سَرَّاج، أو وَرَّاق.

العُتبي قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة. فبعث به إليه. فلما ضرب به وجده دون ماكان يبلغه عنه، فكتب إليه في ذلك. فردَّ عليه: إنما بعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث إليه بالساعد الذى يضرب به.

وسأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوماً عن السلام: فقال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له قال: ماتقول في الترس؟ قال: هو المِجَنّ الدائر وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في الرُّمح؟ قال: أخوك وربما خانك فانقصف. قال فالنَّبل؟ قال: منايا تخطىء وتصيب. قال: فما تقول في الدرع؟ قال: مثقلة للراجل، مُتعبة للفارس، وإنها لحِصن حصين. قال: فما تقول في السيف؟ قال: هناك لا أُم لك ياأمير المؤمنين. فضربه عمر بالدرة، وقال: بل لا أم لك

قال: الحُمَّى أضرعتني [1] لك.

الهيثم بن عدي قال: وصف سيف عمرو بن معديكرب، الذى يقال له الصمصامة، لموسى الهادي فدعا به، فوُضع بين يديه مُجرّداً ثم قال لحاجبه: إيذن للشعراء. فلما دخلوا، أمرهم أن يقولوا فيه. فبدرهم ابن يامين فقال:

---

(١) الحمى أضر عتنى إليك هو مثل تضربه العرب إذا اضطرت للخضوع.

حاز صمصامة الزبيدِيّ عمرٍو ... من جميع الأنام موسي الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا ... خير ماأغمدت عليه الجفون
أخضر المتن بين حديه نورٌ ... من فرندٍ تمتدُّ فيه العيون
أوقدت فوقه الصواعق ناراً ... ثم شابت به الذُّعاف القيون
فإذا ماسللته بهر الشمـ ... ـس ضياءً فلم تكد تستبين
فكأن الفرند والرونق الجا ... ري في صفحتيه ماء معين
وكأنّ المنون نيطت إليه ... فهو من كل جانبيه منون
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيـ ... ـجاء يسطو به ونعم القرين
ما يبالي من انتضاه لضرب ... أشمالٌ سطت به أم يمين

فأمر له ببدرة وخرجوا.

وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبدالله بن المغيرة فقطّه إلى القربوس. فقالوا: ماأجود سيفك! فغضب. يريد أن العمل ليده لا لسيفه. وقال:

متى تلقني يعدو ببَزِّي[1] مُقلِّصٌ ... كُمَيتٌ[2] بهيم أو أغرُّ مُحجَّلُ
تُلاقِ أمرا إن تَلْقَه فبِسَيْفه ... تُعلِّمك الأيامُ ما كنت تجهل

وقال أبو الشيص:

ختلته المنون بعد اختيال ... بين صفين من قنا ونصال
في رداء من الصفيح صقيل ... وقميص[3] من الحديد مُذَال

وبلغ أبا الأغر التميمي أن أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شر، فوجه إليهم ابنه الأغر، وقال: يابُنى، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم؛ وإياك والسيف، فإنه ظل الموت، واتق الرمح، فإنه رشاء المنية؛ ولاتقرب السهام، فانها رُسُل لاتؤامر مرسلها. قال: فبماذا أقاتل؛ قال: بما قال الشاعر:

---

(١) البز: السلاح والمقلص: الفرس الطويل القوائم

(٢) الكميت: لون بين السواد والحمرة.

(٣) القميص: الدرع.

جلاميـد يملان الأكـف كأنهـا رءوس رجال حُلِّقـت في المواسـم

وذكر أعرابي قوماً تحاربوا فقال:

أقبلت الفحول تمشي مَشْيَ الوعُول، فلما تصافحوا بالسيوف، فغرت المنايا أفواهها.

وقال آخر يذكر قوماً أُسِروا: استنزلوهم عن الجياد بلَيِّنة الخُرصان، ونزعوهم نزع الدلاء بالأشطان [١].

وقال أعرابي في آخرين ابتغوا قوماً أغاروا عليهم: احتثُّوا كل جُمالية عيرانة، كيما يخصفون أخفاف المطيّ بحوافر الخيل. حتى أدركوهم بعد ثالثة، فجعلوا المران أرشية المنايا، فاستقوا بها أرواحهم.

ومن أحسن ماقيل في السيف قولُ حبيب:

ونبِّهـن مثلَ السيـف لو لم تَسُلَّـه يَدانِ لسَلّته ظُباه من الغِمْـدِ[٢]

وقال في صفة الرماح:

مُثقّفـات سَلبْنَ الـرومَ زُرْقَتَهـا والعُرْبَ سُمْرتهـا والعاشِق القَضفا

ومن الإفراط القبيح قول النابغة في وصف السيف:

يقُدُّ السَّلوقيَّ[٣] المُضاعَفَ نَسْجُه ويُوقِد في الصُّفّاح نار الحُباحِبِ

فذكر أنه يقدُّ الدرع المضاعف نسجها، والفارس والفرس، ويقع بها في الأرض فيقدح النار من الحجارة.

وأقبح منه في الإفراط قول الآخر[٤]:

تظلّ تحفرُ عنه إن ضربتَ به بعد الذراعين والساقين والهادي[٥]

وقد جمع العلويّ وصف الخيل والسلاح كله، فأحسن وجوّد حيث يقول:

---

(١) الأشطان: الحبال.

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبي تمام.

(٣) السلوقي، نسبة إلى سلوق: بلدة باليمن تنسب إليها الدروع.

(٤) هو النمر بن تولب. انظر ابن قتيبة/ الشعر والشعراء ص١٩٢ طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

(٥) الهادي: العنق

بحسبي من مالي من الخيل أعيطُ[١] سليم الشَّطي عاري النواهق[٢] أمعطُ[٣]
وأبيضُ من ماء الحديد مُهَنّد وأسمرُ عُسّالُ[٤] الكعُوب عنَطْنطُ[٥]
وبيضاءُ كالضحضاح[٦] زَعْفٌ[٧] مُفاضة يُكفِّتها عني نِجادٌ مُخَطَّطُ
ومعطوفة الأطراف كبداء[٨] سمحة مُنَفّجة الأعضاد صفراء شَوْحطُ[٩]
فياليت مالي غيرَ ماقد جمعتُه على لُجّةً تيّارُها يتغطغط[١٠]
ويا ليتني أُمسي على الدهر ليلةً وليس على نفسي أمير مُسَلَّط

ومن قولنا في وصف الرمح والسيف:

بكل رُدَيني كأن سنانه شِهابٌ بدا في ظُلمة الليل ساطعُ
تقاصرت الآجالُ في طول مَتْنه وعادت به الآمال وهي فجائع
وساءت ظنون الحرب في حُسن ظنّه فهنّ ظُبَات للقلوب قوارعُ
وذي شُطَب تقضي المنايا بحُكمه وليس لما تقضي المنية دافعُ
فرنْدٌ إذا ما اعتنَّ[١١] للعين راكد وبرقٌ إذا ما اهتزّ بالكفِّ لامعُ
يُسَلِّل أرواحَ الكُماة انسلاله ويرتاع منه الموتُ والموتُ رائع
إذا مالتقت أمثاله في وقيعة هنالك ظنُّ النفس بالنفس واقع

---

(١) الأعيط: الطويل العنق.
(٢) يريد بعري ناهقيه: أنه لالحم عليهما، وهذا تمتدح به الخيل.
(٣) الأمعط: الذي لاشعر على جسده.
(٤) العسال: الرمح
(٥) عنطنط: طويل.
(٦) الضحاح: الماء اليسير
(٧) الزعف: الدرع الواسعة.
(٨) الكبداء: القوس.
(٩) الشوحط: شجر تتخذ منه القسي.
(١٠) يتغطغط، أى ترتفع أمواجه وتعلو.

ومن قولنا في وصف السيف:

بكـــل مأثـــور علـى متنـــه مثـلُ مـدبّ النمـــل بالقـــاع[١]
يرتد طـرفُ العـين مـن حـــدّه عـــن كوكـــبٍ للـمـــوت لـمّـــاع

النزع بالقوس

إبراهيم الشيبانى قال: كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه يعرض ضيعةً له بواسط فى مغرم لزمه للخليفة، فحمل وكيلا له على بغل وأترع له خرجاً بدنانير، وقال له: اذهب إلى واسط فاشتر هذه الضيعة المعروضة، فإن كفاك مافى هذا الخرج وإلا فاكتب إليَّ أمِدَّك بالمال. فخرج، فلما أصحر[٢] عن البيوت، لحق به أعرابى راكب على حمار معه قوس وكنانة، فقال له: إلى أين تتوجَّه؟ فقال: إلى واسط. قال: فهل لك فى الصحبة؟ قال: نعم. فسارا حتى فوَّزا[٣] فعنَّتْ لهما ظباء قال له الأعرابى: أى هذه الظباء أحب إليك، المتقدِّم منها أم المتأخر فأزكيه[٤] لك؟ قال له: المتقدم. فرماه فخرمه بالسهم فاقتنصه فاشتويا وأكلا. فاغتبط الرجل بصُحبة الأعرابى. ثم عنت لهما زُفَّة[٥] قَطَا فقال: أيها تريد فأصرعها لك؟ فأشار إلى واحدة منها. فرماها فأقصدها، ثم اشتويا وأكلا. فما انقضى طعامهما فوّق له الأعرابيُّ سهماً ثم قال له: أين تريد أن أصيبك؟ فقال له: اتق الله ـ عز وجل ـ واحفظ زمام الصحبة. قال: لابدّ منه. قال: اتق الله ربك واستبقني، ودونك البغل والخرج فإنه مترع مالاً. قال: فاخلع ثيابك. فانسلخ من ثيابه ثوباً ثوباً

---

(١) القاع: الأرض المنخفضة بين السهول.

(٢) أصحر عن بيوت، أى تركها وصار فى الخلاء.

(٣) فوَّزا، أى دخلا المفازة.

(٤) أزكيه، أى أرميه بالسهم فاجعله مزكى يحل أكله.

(٥) الزفة: الزمرة

حتى بقى مجرّداً. قال له: اخلع أمواقك[١]، وكان لابساً خُفين مطابقين[٢] فقال له: اتق الله فىّ ودع لى الخفين أتبلغ بهما من الحر، فإن الرمضاء تحرق قدمى. قال: لابد منه. قال: فدونك الخف، فأخلعه. فلما تناول الخف، ذكر الرجل خنجراً كان معه فى الخف، فاستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عانته، وقال له: الاستقصاء فرقة: فذهب مثلا. وكان هذا الأعرابى من رُماة الحدق[٣].

وقال النبي ﷺ: «**اركبوا وارموا. وأن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا**» وقال: «**كل لهو المؤمن باطل إلا فى ثلاث: تأديبه فرسه، ورميه عن كبد قوسه، وملاعبته امرأته. فإنه حق. إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد: عامله المحتسب، والقويّ به سبيل الله، أي والرامى به فى سبيل الله**»[٤].

ورُوي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»[٥].

---

(١) الأمواق: جمع موق (بالضم) وهو خف غليظ يلبس فوق الخف.

(٢) مطابقين، أي لبس أحدهما فوق الآخر.

(٣) رماة الحدق: أى المهرة فى النضال.

(٤) رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين ورواه أبو داود عن عقبة بن عامر وقال الألباني ضعيف/ انظر ضعيف الترمذي [١٧٠٣] وانظر ضعيف أبي داود [٢٥١٣]. ويغني عنه قوله ﷺ «**كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب، إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امراته. وتأديب الرجل فرسه ومشى الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة**» رواه النسائي عن جابر بن عبدالله «ومر النبي ﷺ بنفر يرمون فقال: رمياً بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً» أخرجه ابن ماجه وأحمد والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم انظر الصحيحة ١٤٣٩.
وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول ﷺ «**ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله. فلايعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه**». وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى**». انظر صحيح مسلم/كتاب الإمارة ـ باب فضل الرمي والحث عليه.

(٥) رواه مسلم بنحوه / كتاب الإمارة/باب فضل الرمي والحث عليه [١٩١٧].

وكان أرمى أصحاب رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص، لأن رسول الله ﷺ دعا له، فقال: «**اللهم سدِّد رميته، وأجب دعوته**»[١] فكان لايرد له دعاء، ولايخيب له سهم.

وذكر أسامة بن زيد أن شيوخاً من أسلم حدثوه: أن رسول الله ﷺ جاءهم وهم يرمون ببُطْحان [٢] فقال رسول الله ﷺ: «**ارموا يابني إسماعيل، فقد كان أبوكم رامياً، وأنا مع ابن الأدرع**»[٣] فتعدى القوم فقالوا: يارسول الله، من كنت معه فقد نضل[٤]. قال رسول الله ﷺ: «**ارموا وأنا معكم كلكم. فانتضلوا ذلك اليوم، ثم رجعوا بالسواء ليس لأحد على أحد منهم فضل**»[٥].

وقال عمر: ائتزروا وارتدوا، وانتعلوا واحتفوا، وارموا الأغراض، وألقوا الرُّكُب[٦]، وانزوا على الخيل نَزْوا، وعليكم بالمعدِّية ـ أو قال بالعربية ـ ودعوا التنعم وزيّ العجم

وقال أيضا: لن تخور قواكم مانزوتم ونزعتم. يعنى نزوتم على ظهور الخيل، ونزعتم بالقِسيِّ.

وجنى قوم من أهل اليمامة جناية، فأرسل السلطان إليهم جنداً من محاربة ابن زياد[٧]. فقام رجل من أهل البادية يذمِّر أصحابه، فقال: يامعشر العرب، ويابني المحصنات. قاتلوا على أحسابكم وأنسابكم، فو الله إن ظهر هؤلاء عليكم لايدعون بها لبنة حمراء، ولانخلة خضراء إلا وضعوها بالأرض، ولااعتراكم من نُشّاب معهم

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة [١٤٠٨] وموسى بن عقبة والحديث ضعيف، وكون سعد رضي الله عنه مستجاب الدعوة أمر معلوم وفي سنن الترمذي [٣٧٥١] بسند صحيح «**اللهم استجب له إذا دعاك**» يعني سعداً.

(٢) بطحان (بالضم أو بالفتح وكسر الطاء): موضع بالمدينة

(٣) ابن الأدرع: اسمه محجن. وقيل: سلمة والأدرع لقب.

(٤) نضل: غلب في المناضلة، وهي المراماة.

(٥) رواه البخاري بنحوه/كتاب الجهاد ـ باب التحريض على الرمي

(٦) الركب (ككتب): جمع ركاب.

(٧) ابن زياد: هو عبيد الله بن زياد ابن أبيه.

فى جعاب كأنهار أيور الفيَلة، ينزعون فى قِسيّ كأنها الغُبُط، تَئِطّ إحداهن أطيط الزُّرْنوق[١]، يَمْعط[٢] أحدهم فيها حتى يتفرق شعر إبطئيه، ثم يرسل نشابة كأنها رشاء منقطع فما بين أحدكم وبين أن تنفضخ عينه أو ينصدع قلبه منزلة. فخلع قلوبهم، فطاروا رعباً.

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان

هذا ماتراجع فيه المهدى ووزراؤه، ومادار بينهم من تدبير الرأي فى حرب خُراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة، على أن نكثوا بيعتهم ونقضوا موثقهم، وطردوا العمال، والتواثبوا بما عليهم من الخراج، وحمل المهدى مايجب من مصلحتهم، ويكره من عنتهم، على أن أقال عثرتهم، واغتفر زلتهم، واحتمل دالتهم؛ تطولاً بالفضل، واتساعاً بالعفو، وأخذا بالحجة، ورفقا بالسياسة. ولذلك لم يزل، منذ حمّله الله أعباء الخلافة، وقلده أمور الرعية، رفيقا بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه؛ باسطا للمَعْدِلَة فى رعيته، تسكن إلى كنفه، وتأنس بعفوه، وتثق بحلمه. فإذا وقعت الأقضية اللازمة، والحقوقُ الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولامداهنة، أثرةً للحق، وقياماً بالعدل، وأخذاً بالحزم. فدعا أهلَ خراسان الاغترارُ بحلمه، والثقةُ بعفوه، أن كسروا الخراج، وطردوا العمال، وسألوا ماليس لهم من الحق. ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار، وخصومه بإقرار، وتنصُّلاً باعتلال. فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه، وبعث إلى نفر من لُحْمته [٣] ووزرائه، فأعلمهم الحال، واستنصحهم للرعية، ثم أمر الموالى بالابتداء، وقال للعباس بن محمد[٤]: أيْ: عم؛ تعقّب قولنا،

(١) الزرنوق: واحد الزرنوقين، وهما منارتان تبنيان على رأس البئر من جانبيها فتوضع عليها خشبة تعرض عليهما ثم تعلق فيها البكرة فيستقي بها.

(٢) معط الرامي فى قوسه: أغرق فى مدها.

(٣) لحمته: قرابته

(٤) هو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، أخو المنصور.

وكُن حكـما بيننا. وأرسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمرَ، وشاركهما فى الرأي، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم، وإثبات مقالتهم فى كتاب.

فقال سلّام صاحب دار المظالم: أيها المهدي، إن فى كل أمر غاية، ولكل قوم صناعة، استفرغت رأيهم، واستغرقت أشغالهم، واستنفدت أعمارهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعُرفوا بها وعُرفت بهم. ولهذه الأمور التي جعلتنا فيها غاية وطلبت معـونتنـا عليهـا، أقـوام من أبناء الحرب، وساسة الأمور، وقادة الجنود، وفرسان الهـزاهـز[1] وإخـوان التجارب، وأبطال الوقائع، الذين رشحتهم سجالُها، وفيّأتهم ظلالُهـا، وعضّتهم شدائدُها، وقرمتهم نواجذُها. فو عجمت ماقِبَلهم، وكشعت ماعنـدهم، لوجـدت نظائـر تؤيدُ أمـرك، وتجاربَ توافق نظرك، وأحاديث تُقويّ قلبك. فأما نحن، معاشر عمالك، وأصحاب دواوينك، فحسنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بِثِقْل ماحمّلتنا من عملك، واستودعتنا من أمانتك، وشغلتنا به من إمضاء عدلك، وإنفاذ حُكمك، وإظهار حقّك.

فأجابه المهدي: إن فى كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفى كل حال تدبيراً، يبطل الآخر الأولَ، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا.

قال: نعم، أيهـا المهـدي، أنت متسع الرأى، وثيق العُقدة، قويّ المُنّة، بليغ الفطنة، معصوم النية، محضور الرويّة، مؤيَّد البديهة مُوفّق العزيمة، مُعانٌ بالظّفَر، مهديّ إلى الخير. إن هممتَ ففى عزمك مواقعُ الظنِّ، وإن أجمعت صَدَعَ فعلُك ملتبسَ الشك. فاعزم يهد الله إلى الصواب قلبك، وقُلْ يُنطِق الله بالحق لسانك؛ فإن جنودك جَمّة، وخزائنك عامرة، ونفسك سخية، وأمرك نافذ.

فأجابة المهدي: إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة، ومِفتاحا بركة، لايَهْلِك عليهما رأي، ولايتفيّل [2] معهـما حزم، فأشـيروا برأيكم، وقـولـوا بما يحضركم فإنى من ورائكم، وتوفيق الله من وراء ذلك.

قال الـربيع: أيها المهدى، إن تصاريف وجوه الرأى كثيرة وإن الإشارة ببعض

---

(١) الهزاهز: الفتن والحروب. (٢) لايتفيل: لايضعف.

معاريض القول [١] يسيرة. ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة، متراخية الشُّقّة، متفاوتة السُّبُل. فإذا ارتأيت من محكم التدبير، ومُبرم التقدير، ولُباب الصواب، رأيا قد أحكمه نظرُك، وقلّبه تدبيرك، فليس وراءه مذهبٌ لحُجَّة طاعن، ولادونه معلق لخصومة عائب؛ ثم خبَّت البُرُد [٢] به، وانطوت الرسل عليه، كان بالحري أن لايصل إليهم محكمه، إلا وقد حدث منهم ماينقضه. فما أيسر أن ترجع إليك الرسل، وتَردَ عليك الكتب، بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادر أمورهم، فتحدث رأيا غيره، وتبتدع تدبيراً سواه، وقد انفرجت الحِلَق وتحلَّلت العُقَد، واسترخى الحقاب [٣] وامتد الزمان ثم لعلَّما موقع الأخرة كمصدر الأولى. ولكن الرأي لك أيها المهدي ـ وفقك الله ـ أن تصرف إجالة النظر وتقليب الفكر، فيما جمعتنا له، واستشرتنا فيه، من التدبير لحربهم، والحِيَل فى أمرهم، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوىً فى سواك، ولامتهما فى أثرة عليك، ولاظنينا [٤] على دُخلة مكروهة، ولامنسوبا إلى بدعة محظورة، فيقدح فى ملكك، ويُربِّض [٥] الأمور لغيرك، ثم تسند إليه أمورهم، وتفوض إليه حربهم، وتأمره فى عهدك ووصيتك إياه، بلزوم أمرك مالزمه الحزم؛ وخلاف نهيك إذا خالفه الرأى، عند استحالة الأمور، واستدارة الأحوال، التى يُنْقَض أمر الغائب عنها، ويثبُت رأى الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك فوائب أمرهم من قريب، وسقط عنه مايأتي من بعيد، تمت الحيلة، وقويت المكيدة، ونفذ العمل، وأُحِدّ النظر. إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدى، إن وليّ الأمور وسائس الحروب، ربما جنّد جنوده، وفرّق أمواله فى غير ماضيق أمر حَزَبه [٦]، ولاضغطة حالٍ اضطرته،

---

(١) معاريض القول: ماعرض به ولم يصرح، وهي التورية عن الشيء بالشيء.

(٢) خبت: أسرعت. والبرد: جمع بريد، وهو الرسول.

(٣) الحقاب: شيء تعلق به المرأة الحلي وتشده فى وسطها.

(٤) الظنين: المتهم.

(٥) يربض: يثبت.

(٦) حزبه: اشتد عليه.

فيقعد عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها، عديماً منها، فاقداً لها، لايثق بقوة، ولايصول بعُدّة، ولايفرع إلى ثقة. فالرأى لك أيها المهدي ـ وفقك الله ـ أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغرير القتال، ولاتُسرع للقوم في الإجابة إلى مايطلبون، والإعطاء لما يسألون، فيفسد عليك أدبهم، وتجرِّيء من رعيتك غيرهم. ولكن اغْزهم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين، وخاتلهم بالرفق، وأبرق لهم، وأرعد نحوهم بالفعل، وابعث البعوث، وجنّد الجنود، وكتّب الكتائب، واعقد الألوية، وانصب الرايات، وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش، مع أحنق قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم. ثم ادسس الرسل وابثث الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف من وعيدك. وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم، وأغرض أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة، وتنطوى الصدور على البغضة، ويدخل كلا من كل الحذر والهيبة، فإن مرام الظفر بالغيلة، والقتال بالحِيلة، والمناصبة بالكتب، والمكايدة بالرسل، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل فى القلوب، القوي الموقع من النفوس، المعقود بالحجج، الموصول بالحيل، المبني على اللين، الذي يستلب العقول، ويسترق القلوب؛ ويسبي الآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي المواتاة[1]، أنفذ من القتال بظبات السيوف وأسنة الرماح. كما أن الوالى الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل، ويفرق كلمة عدوه بالمكايدة، أحكم عملاً، وألطف نظراً. وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال، وإتلاف الأموال، والتغرير والخطار. وليعلم المهدي ـ وفقه الله ـ أنه إن وجَّه لقتالهم رجلا، لم يسرِ لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة، وتقدم على أسفار صعبة، وأموال متفرقة، وقُوَّاد غششة، إن ائتمنهم استنفدوا ماله، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره، وبرق ضوؤه، وتمثل صوابه للعيون،

---

(١) المواتاة: الموافقة.

وتجسد حقه فى القلوب. ولكن فوق كل ذى علم عليم. ثم نظر إلى ابنه على، فقال: ماتقول؟

قال علىّ: أيها المهدي إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يداً، ولم ينصبوا من دونك أحداً يكدح فى تغيير ملكك، ويربض الأمور لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصغر، والحال أذل؛ لأن الله مع حقه الذى لايخذله، وعند موعده الذى لا يخلفه. ولكنهم قوم من رعيتك، وطائفة من شيعتك، الذين جعلك الله عليهم والياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً. طلبوا حقاً، وسألوا إنصافاً، فإن أجبت إلى دعوتهم، ونفست عنهم قبل أن تتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب، وأطفأت نائرة[1] الحرب، ووفرت خزائن المال، وطرحت تغرير القتال، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك، وسجية حلمك، وإسجاح خليقتك، ومعدلة نظرك. فأمِنت أن تنسب إلى ضعف، وأن يكون ذلك لهم فيما بقى دُرْبة. وإن منعتهم ماطلبوا، ولم تجبهم إلى ما سألوا، اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم فى ميدان الخطاب. فما أربُ المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مذعنين طاعته، لايخرجون أنفسهم عن قدرته، ولايبرئونها من عبوديته، فملكهم أنفسهم، ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الجدل معهم، ثم يجازيهم السوء فى جِدِّ المقارعة، ومضمار المخاطرة؟ أيريد المهدي ـ وفقه الله ـ الأموال؟ فلعمري لايناها ولايظفر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم، وأضعاف مايدعي قِبَلهم. ولو نالها فحملت إليه، ووضعت بخرائطها[2] بين يديه، ثم تجافى لهم عنها، وطال عليهم بها، لكان ذلك مما إليه ينسب، وبه يعرف من الجود الذى طبعه الله عليه؛ وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه، فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد فى أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا وتحامل ولاتنا؛ فأما الجنود الذين نقضوا مواثيق العهود،

---

(١) نائرة الحرب: مااشتعل منها واتقد.

(٢) الخرائط: جمع خريطة، وهو وعاء من أدم وغيره يشرج على مافيه.

وأنطقوا لسان الإرجاف[١] وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم. فيعلم المهدى أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرنين فى الأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوه، ولإقالة عثرتهم صفحه، واستبقاهم لما هم فيه من حربه، أو لمن بإزائهم من عدوه لما كان بدعاً من رأيه، ولا مستنكرا من نظره. لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً، وأشدها وقعاً، وأصدقها صولة، وأنه لايتعاظمه عفو، ولايتكاءده[٢] صفح، وإن عظم الذنب، وجل الخطب. فالرأي للمهدي ـ وفقه الله تعالى ـ أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم، وأن يذكر أولى حالاتهم، وضيعة عيالاتهم، بَرًا بهم وتوسعا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته وأساس حقه الذين بعزتهم يصول، وبحجتهم يقول. وإنما مَثَلُهم فيما دخلوا فيه من مساخطه، وتعرضوا له من معاصيه، وانطووا فيه عن إجابته، ومَثَلُه فى قلة ماغير ذلك من رأيه فيهم، أو نقل من حاله لهم، أو تغير من نعمته عليهم كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازرين، أصاب أحدهما خبل عارض، ولم حادث، فنهض إلى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه، فلم يزد ذلك أخاه إلا رقة له، ولطفاً به، واحتيالاً لمداواة مرضه، ومراجعة حاله، عطفاً عليه، وبراً به، ومرحمةً له.

فقال المهدى: أما عليّ فقد نوى سمت الليان، وفض القلوب عن أهل خراسان، ولكل نبإ مستقر وسوف تعلمون. ثم قال: ماترى ياأبا محمد؟ يعنى موسى ابنه.

فقال موسى: أيها المهدي، لاتسكن إلى حلاوة مايجرى من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم. الحال من القوم تنادى بمضمرة شر، وخفية حقد، قد جعلوا المعاذير عليه ستراً، واتخذوا العلل من دونها حجاباً، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير، والأمور بالتطويل، فيكسروا حيل المهدي فيهم، ويثنوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرهم، وتتلاحق مادتهم، وتستفحل حربهم، وتستمر

(١) الإرجاف: الخوض فى أخبار الفتن لإيقاع الاضطراب فى الناس

(٢) يتكاءده: يشق عليه.

الأمور بهم. والمهدي من قولهم فى حال غرة ولباس أمنة قد فَتَر لها، وأنس بها، وسكن إليها. ولولا مااجتمعت به قلوبهم، وبردت عليه جلودهم، من المناصبة بالقتال، والإضمار للقراع، عن داعية ضلال، أو شيطان فساد، لرهبوا عواقب أحوال الولاة، وغِبّ سكون الأمور. فليشدُد المهدي ـ وفقه الله ـ أزره لهم، ويُكتِّب كتائبه نحوهم، وليضع الأمرَ على أشدّ مايحضُره فيهم، وليُوقن أنه لايعطيهم خُطّة يُريد بها صلاحَهم، إلا كانت دُربةً لفسادهم، وقُوةً من معصيتهم، وداعيةً إلى عودتهم، وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود، ومن ببابه من الوفود، الذين إن أقرَّهم على تلك العادة، وأجراهم على ذلك الأدب، لم يبرح فى فتق حادث، وخلاف حاضر، لايصلح عليه دين، ولاتستقيم به دنيا. وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة، واستمرار الدُّربة، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المُفرطة، والمئونة الشديدة. والرأى للمهدي ـ وفقه الله ـ أن لا يُقيل عثرتهم، ولايقبل معذرتهم، حتى تطأهم الجيوش، وتأخذهم السيوف، ويستحر بهم القتل، ويحدق بهم الموت، ويحيط بهم البلاء، ويطبق عليهم الذل. فإن فعل المهدي بهم ذلك، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم، وهزيمة لكل بادرة شر منهم. واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه مؤونة غزوات كثيرة، ونفقات عظيمة.

قال المهدى: قد قال القوم، فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدى، أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى، وسلكوا جنبات الصواب، وتعدوا أموراً قصر نظرهم عنها، لأنه لم تأت تجاربهم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال أن لاتنفق، والجنود أن لاتفرق، وبأن لايعطى القوم ماطلبوا، ولايبذل لهم ماسألوا، وجاء بأمر بين ذلك، استصغاراً لأمرهم، واستهانة بحربهم، وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارها.

وأما علىّ فأشار باللين وإفراط الرفق. وإذا جرد الوالى لمن غمط أمره، وسفه حقه اللين بحتا، والخير محضاً، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب على لينة ولابشرٍّ

يَحيشُهم[١] إلى خيره، فقد ملكهم الخنع لعذرهم[٢]، ووسع لهم الفرجة لثنى أعناقهم. فإن أجابوا دعوته، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطرهم، ولاشدة حال أخرجتهم، لم يزل ذلك يهيج عزة فى نفوسهم، ونَزْوة فى رءوسهم، يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم، ويصرفون بها رأى المهدي فيهم. وإن لم يقبلوا دعوته، ويسرعوا لإجابته، باللين المحض، والخير الصراح، فذلك ماعليه الظن بهم، والرأى فيهم، وماقد يُشبه أن يكون من مثلهم؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم، والملك الكبير، ما لا يخطر على قلب بشر، ولاتدركه الفكر، ولا تعلمه نفس، ثم دعا الناس إليها، ورغبهم فيها. فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا ولاقبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا[٣] بشدة لا لين فيها، وأن يرموا بشر لاخير معه. وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفرداً، والشر مجردا، ليس معها طمع يكسرهم، ولا لين يثنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة، والأنفة من الذلة، والامتعاض من القهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادي فى الخلاف، والاستبسال فى القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكُرْه، ويذعنوا بالقهر، على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تُورث النفاق، وتُعقب الشقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان.

وقال: فى قول الفضل أيها المهدي، أكفى دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان؛ قد اجتمع رأيه، وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم، وتوجيه

---

(١) يحيشهم: أي يفزعهم

(٢) العذر (بضمتين) جمع عذار؛ وهو من اللجام ماسال على خد الفرس.

(٣) عصب الشيء: لواه وشده.

البعوث نحوهم، مع إعطائهم ماسألوا من الحق، وإجابتهم إلى ماسألوه من العدل .

قال المهدي : ذلك رأى.

قال هارون : خلطت الشدة أيها المهدي باللين، فصارت الشدة أمر فطام لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد إلى ماتحب، ولكنى أرى غير ذلك . ،

قال المهدى : لقد قلت قولاً بديعاً . خالفت به أهل بيتك جميعاً، والمرء متهم بما قال : وظنين بما ادَّعى، حتى يأتي ببينة عادلة، وحجة ظاهرة؛ فاخرج عما قلت .

قال هارون : أيها المهدى، إن الحرب خُدعة، والأعاجم قوم مكرة، وربما اعتدلت الحال بهم، واتفقت الأهواء منهم، فكان باطن مايسرون على ظاهر مايعلنون؛ وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تبطن، واستسر بمدخولة لاتعلن. والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدَّم[1] يده، وموضع ميسمه[2]، لايتعجل بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء . فالرأى للمهدي ـ وفقه الله ـ أن يفرَّ[3] باطن أمرهم فرَّ المُسِنَّة، ويَمْخَضُ ظاهر حالهم مخض السقاء، بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاة العيون، حتى تهتك حجب غيوبهم، وتكشف أغطية أمورهم ، فإن انكشفت الحال له، وأفضت الأمور به، إلى تغيير حال، أو داعية ضلال، اشتملت الأهواء عليه، وانقاد الرجال إليه، وامتدت الأعناق نحوه، بدين يعتقدونه، وإثم يستحلونه، عصبهم بشدة لا لين فيها، ورماهم بعقوبة لاعفو معها. وإن انفرجت الغيوب، واهتصرت الستور، ورفعت

---

(١) مقدم يده، أى الموضع الذى يقدم الطبيب فيه يده من المريض.

(٢) الميسم : المكواة.

(٣) يفر: يختبر

الحجب، والحال فيهم مريعة [١]، والأمور بهم معتدلة، عن أرزاق يطلبونها، وأعمال ينكرونها، وظُلامات يدعونها، وحقوق يسألونها، بماتّة سابقتهم، ودالة مناصحتهم، فالرأي للمهدي ـ وفقه الله ـ أن يتسع لهم بما طلبوا، ويتجافى لهم عما كرهوا، ويشعب من أمرهم ماصدعوا، ويرتق من فتقهم مافتقوا، ويولي عليهم من أحبوا، ويداوي بذلك مرض قلوبهم، وفساد أمورهم، فإنما المهدي وأمته وسواد أهل مملكته، بمنزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعى الحدب، الذى يحتال لمرابض غنمه، وضوال رعيته. حتى يبرئ المريضة من داء علتها، ويرد الضالة إلى أنس جماعتها. ثم إن خراسان بخاصة لهم دالة محمولة، وماتّة مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوق واجبة، لأنهم أيدي دولته، وسيوف دعوته، وأنصار حقه، وأعوان عدله؛ فليس من شأن المهدى الاضطغان عليهم، ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعر بهم، ولا المكافأة بإساءتهم، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلُظ، أحزم في الرأى. وأصح فى التدبير، من التأخير لها، والتهاون بها، حتى يلتئم قليلها بكثيرها، وتجتمعَ أطرافُها إلى جمهورها.

قال المهدي: مازال هارون يقع وَقْعَ الحيا، حتى خرج خروج القِدَح مما قال، وانسلّ انسلال السيف فيما ادّعى. فدعوا ماقد سبق موسى فيه أنه هو الرأي، وثنّى بعده هارون. ولكن من لأعنّة الخيل، وسِياسة الحرب، وقادة الناس، إن أمعن بهم اللّجاج، وأفرطت بهم الدالة؟

قال صالح: لسنا نبلُغ أيها المهدي بدوام البحث، وطول الفِكر، أدنى فراسة رأيك، وبعض لحظات نظرك، وليس ينفضّ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل، ورأى كامل، وتدبير قويّ، تُقلده حربَك،

---

(١) مريعة، أى موفورة الرزق مخصبة؛ يقال: مرع الوادي (من باب كرم)، أى أخصب بكثرة الكلأ، فهو مريع.

وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة. وأنت بحمد الله ميمون النقيبة مبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم، فليس يقع اختيارك، ولايقف نظرك، على أحد توليه أمرك، وتسند إليه ثغرك، إلا أراك الله منه ماتحب، وجمع لك منه ماتريد.

قال المهدي: إنى لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه، وحسن معونته عليه. ولكن أحب الموافقة على الرأي، والاعتبار بالمشاورة فى الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان، أيها المهدي، قوم ذوو عزة ومنعة وشياطين خدعة زروع الحمية فيهم نابتة، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة، فالروية عنهم عازبة، والعجلة فيهم حاضرة، تسبق سيولهم مطرهم، وسيوفهم عذلهم، لأنهم بين سِفلة لايعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم، وبين رؤساء لايُلجمون إلا بالشدة، ولايُفطمون إلا بالقهر. وإن ولى المهدي عليهم وضيعاً لم تنقد له العظماء، وإن ولى أمرهم شريفا تحامل على الضعفاء. وإن أخر المهدىُّ أمرهم، ودافع حربهم، حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه، ناصحاً يتفق عليه أمرهم، وثقة تجتمع له أملاؤهم [1]، بلا أنفة تلزمهم، ولاحمية تدخلهم، ولا عصبية تنفرهم، تنفست الأيام بهم، وتراخت الحال بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضياع العظيم، مالا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جدَّ، ولايستصلحه، وإن جهد، إلا بعد دهر طويل، وشر كبير. وليس المهدي ـ وفقه الله ـ فاطماً عاداتهم، ولاقارعاً صفاتهم، بمثل أحد رجلين لاثالث لهما، ولاعدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق، موصول بسمعك، ويد ممثلة لعينك، وصخرة لاتزعزع، وبُهْمة لايُثْنى، وبازل [2] لايفزعه صوت الجُلْجَل؛ تقيّ العرض، نزيه النفس، جليل

(١) أملاؤهم: جماعاتهم، الواحد: ملأ.

(٢) البازل: الجمل فى السنة التاسعة. ويطلق على الرجل الكامل فى تجربته.

الخطر ، قد اتضعت الدنيا عن قدره، وسما نحو الآخرة بهمته؛ فجعل الغرض الأقصى لعينه نصبا، والغرض الأدنى لقدمه موطئاً، فليس يغفل عملا، ولايتعدى أملا، وهو رأس مواليك، وأنصح بني أبيك، رجل قد غُذّي بلطيف كرامتك، ونبت في ظل دولتك، ونشأ على قويم أدبك. فإن قلدته أمرهم، وحمّلته ثقلهم، وأسندت إليه ثغرهم، كان قفلا فتحه أمرك، وباباً أغلقه نهيك، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً، والإنصاف بينه وبينهم حاكما. وإذا حكم النصفة، وسلك المعدلة، فأعطاهم مالهم، وأخذ منهم ماعليهم، غرس لك في الذى بين صدورهم، وأسكن لك فى السويداء داخل قلوبهم، طاعة راسخة العروق، باسقة الفروع، متمثلة في حواشى عوامهم، متمكنة من قلوب خواصهم، فلايبقى فيهم ريب إلا نفوه، ولايلزمهم حق إلا أدوه، وهذا أحدهما. والآخر عود من غيضتك، ونبعة من أرومتك، فتيَّ السن، كهل الحلم، راجح العقل، محمود الصرامة، مأمون الخلاف، يجرد فيهم سيفه، ويبسط عليهم خيره، بقدر مايستحقون، وعلى حسب مايستوجبون، وهو فلان أيها المهدي. فسلطه ـ أعزك الله ـ عليهم، ووجهه بالجيوش إليهم، ولاتمنعك ضراعة سنة [1]، وحداثة مولده، فإن الحلم والثقة مع الحداثة، خير من الشك والجهل مع الكهولة وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه، واختصكم به، من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس، كفراخ عتاق الطير المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب، فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم، مزروع في قلوبكم، مستحكم لكم، متكامل عندكم، بطبائع لازمة، وغرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: أفتاء أهل بيتك أيها المهدى فى الحلم على ماذُكر،

---

(١) ضراعة سنة: شبابه.

وأهل خراسان في حال عز على ماوُصف، ولكن إن ولِّي المهدى عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود، ولابنبيه الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهَيبة في الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان، وخطران مهولان، أحدهما: أن الأعداء يغتمزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويجترئون بها عليه، في النهوض به والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشف لحاله، والعلم بطباعه. والأمر الآخر: أن الجنود التي يقود، والجيوش التي يسوس، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة، ولم يعرفوه بالصوت والهيبة، انكسرت شجاعتهم، وماتت نجدتهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم، ووقوع معرفتهم، وربما وقع البوار قبل الاختبار. وبباب المهدي ـ وفقه الله ـ رجل مهيب، نبيه حنيك صيِّت، له نسب زاك، وصوت عال، قد قاد الجيوش، وساس الحروب، وتألَّف أهل خراسان، واجتمعوا عليه بالمِقّة[1]، ووثقوا به كل الثقة، فلو ولاه المهدي أمرهم، لكفاه الله شرهم.

قال المهدى: جانبت قصد الرمية، وأبيت إلا عصبية، إذ رأيُ الحدث من أهل بيتنا، كرأي عشرة حلماء من غيرنا. ولكن أين تركتم وليَّ العهد؟ قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونُه شَبيهَ جَدّه، ونسيجَ وَحْده، ومن الدِّين وأهله بحيث يقصر القول عن أدنى فضله. ولكن وجدنا الله عزوجل قد حجب عن خلقه، وستر من دون عباده، عِلْمَ ماتختلف به الأيام، ومعرفة ماتجرى به المقادير، من حوادث الأمور، وريب المنون، المخترمة[2] لخوالي القرون، ومواضي الملوك، فكرهنا شسوعه[3] عن محلّة المُلك، ودار السلطان، ومقرّ الإمامة والولاية، وموضع المدائن والخزائن، ومستقر الجنود، وموضع الوجوه، ومجمع الأموال،

---

(١) المقة: الحب.

(٢) المخترمة: المهلكة.

(٣) شسوعه: بعده.

التى جعلهـا الله عزوجل قطباً لمدار الملك، ومصيدة لقلـوب لناس، ومثابة لإخـوان الـطمـع، وثـوّار الفتن، ودواعي البـدع، وفرسان الضلال، وأبناء المروق. وقلنـا إن وجّه المهدي وليّ عهده، فحدث فى جيوشه وجنوده ماقد حدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يُعقبه بغيره، إلا أن ينهض إليهم بنفسه، وهذا خطر عظيم، وهول شديد، إن تنفّست الأيام بمقامه، واستدامت الحال بأيامه، حتى يقع عَرَض لايُستغنى فيه، أو يحدث أمر لابد فيه منه، صار مابعده، مما هو أعظم هَوْلاً وأجل خطراً، له تبعاً وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطب أيسر ما تذهبون إليه وعلى غير ماتصفون الأمر عليه. نحن ـ أهل البيت ـ نجري من أسباب القضايا، ومواقع الأمور، على سابق من العلم، ومحتـوم من الأمر، قد أنبأت به الكتب، وتتابعت عليه الرسل، وقد تناهىَ ذلك بأجمعه إلينا، وتكامل بحذافيره عندنا، فيه نُدبِّر وعلى الله نتوكل. إنه لابد لوليّ عهدي، وولـي عهـد عقبي من بعدي، أن يقود إلى خراسان البعوث، ويتوجه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يُقدِّم إليهم رسله، ويعمل فيهم حِيَله، ثم يخرج نَشِطاً إليهم حَنِقاً عليهم يريد أن لايدع أحداً من إخوان الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضـلال، إلا توطّـأه بحـرّ القتـل، وألبسه قِناع القهر، وطوّقه طَوْق الذُّل؛ ولاأحداً من الذين عملوا فى قصّ جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرة ولاة الحق، إلا أجرى عليهم دِيَم فَضْله، وجداول بذله. فإذا خرج مُزْمِعاً له مُجْمِعاً عليه، لم يَسِرْ إلا قليلا حتى يأتيه أن قد عملت حيله. وكدحت كتبه، ونفذت مكـايده؛ فهـدأت نافـرة القلوب، ووقعت طائـرة الأهواء [1] واجتمع عليه المختلفون بالرضا، فيميل نظراً لهم، وبرًّا بهم، وتعطفاً عليهم، إلى عدو قد

(١) وقعت طائرة الأهواء: خمد غضبها وسكنت ثائرتها.

أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حُجّاجهم بيت الله الحرام، وسلب تُجّارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة عليهم بإعطاء مايطلبون، وبذل مايسألون، فإذا سمت الفرق بقرانها له، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه، فأصغت إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة، وقدمت عليه الوفود، قصد لأول ناحية بخعت[1] بطاعتها، وألقت بأزمّتها، فألبسها جناح نعمته، وأنزلها ظل كرامته وخصّها بعظيم حبائه، ثم عمّ الجماعة بالمعدلة، وتعطّف عليهم بالرحمة. فلاتبقي فيهم ناحية دانية، ولافرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركته، ووصلت إليها منفعته، فأغنى فقيرها، وجبر كسيرها، ورفع وضيعها، وزاد رفيعها، ماخلا ناحيتين: ناحية يغلب عليهم الشقاء، وتستميلهم الأهواء، فتستخفّ بدعوته، وتُبطىء عن إجابته، وتتثاقل عن حقّه، فتكون آخر من يبعث، وابطأ من يُوجّه فيضطمر[2] عليها مَوْجدة، ويبتغى لها علّة، لايلبث أن يجدها بحق يلزمهم، وأمر يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويستحرّ فيهم القتل، ويحيط بهم الأسر، ويفنيهم التتبُّع، حتى يُخرّب البلاد، ويُؤتم الأولاد وناحيةً لايبسط لهم أماناً، ولايقبل لهم عهداً، ولا يجعل لهم ذمة، لأنهم أول من فتح باب الفُرقة، وتدرَّع جلباب الفِتنة، وربض فى شقّ العصا. ولكنه يَقتُل أعلامهم، ويأسر قوّادهم، ويطلب هُرّابهم، فى لُجج البحار، وقُلل الجبال، وخَمَر[3] الأودية، وبطون الأرض، تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً، حتى يدع الديار خراباً، والنساء أيامَىٰ. وهذا أمر لانعرف له فى كتبنا وقتاً، ولانصحح منه غير ماقلنا تفسيراً.

---

(١) بخعت بطاعتها: أقرت بها.

(٢) يضطمر، أى يضمر فى نفسه ويخفي.

(٣) الخمر (بفتحتين): ماوارك من شجر؛ تقول: توارى الصيد مني فى خمر الوادي.

وأما موسىٰ ولي عهدي، فهذا أوان توجّهه إلى خراسان، وحُلوله بجرجان، وماقضى الله له من الشخوص إليها، والمقام فيها، خيرٌ للمسلمين مغبّة، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يُغمر فى لجج بُحورنا، ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا، فيتصاغر عظيم فضله، ويتذأب[1] مشرق نوره، ويُتقلّل كثير ماهو كائن منه. فمن يصحبه من الوزراء، ومن يختار له من الناس؟

قال محمد بن الليث: أيها المهدي، إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل ملّتك علما قد تثنّت نحوه أعناقُها، ومُدَّت سَمْته أبصارها. وقد كان لقرب داره منك، ومحل جواره لك: عُطْلَ الحال، غُفْلَ الأمر، واسع العذر. فأما إذا انفرد بنفسه، وخلا بنظره، وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة، وأمراء الأمة، أن تتفقد مخارج رأيه، وتستنصت لمواقع آثاره، وتسأل عن حوادث أحواله، فى برّه ومَرْحمته، وإقساطه ومَعْدَلته، وتدبيره، وسياسته، ووزرائه وأصحابه، ثم يكون ماسبق إليهم، أغلب الأشياء عليهم، وأملك الأمور بهم، وألزمها لقلوبهم، وأشدها استمالة لرأيهم، وعطفاً لأهوائهم، فلايفتأ المهدي ـ وفقه الله ـ ناظراً له فيما يقوِّي عَمَد مملكته ويُسدّد أركان ولايته، ويستجمع رضا أُمته، بأمرٍ هو أزين لحاله، وأظهر لجماله، وأفضل مَغبَّة لأمره، وأجلّ موقعاً فى قلوب رعيته، وأحمدُ حالاً فى نفوس أهل مِلّته. ولاأوقع مع ذلك باستجماع الأهواء له، وأبلغ فى استعطاف القلوب عليه، من مرحمة تظهر من فعله، ومعدلة تنتشر من أثره، ومحبة للخير وأهله. وأن يختار المهديُّ ـ وفقه الله ـ من خيار أهل كل بلدة، وفقهاء أهل كل مصر، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذُكروا، وتأنس الرعية بهم إذا وصفوا، ثم تُسهل لهم عِمارة سُبل الإحسان، وفَتْح باب المعروف، كما قد كان فُتح له وسُهِّل عليه.

قال المهديُّ: صدقتَ ونصحتَ. ثم بعث في ابنه موسىٰ[2] فقال: أى بُنيّ، إنك

---

(١) يتذأب: يضطرب.

(٢) بعث في ابنه: أي فى طلب ابنه.

قد أصبحت لسَمْت عيون العامة نُصْباً، ولثنى أعطاف الرعية غاية، فحسنتك شاملة، وإساءتُك نامية وأمرك ظاهر. فعليك بتقوى الله عزوجل وطاعته، فاحتمل سُخط الناس فيها، ولاتطلب رضاهم بخلافها، فإن الله عزوجل كافيك من أسخطه عليك إيثارُك رضاه، وليس بكافيك من يُسخطه عليك إيثارُك رضا من سواه. ثم اعلم أن لله تعالى في كل زمان عِتْرَةَ من رسله، وبقايا من صفوة خلقه، وخبايا لنُصرة حقّه؛ يُجدِّد حبلَ الإسلام بدعواهم، ويُشيِّد أركان الدين بنصرتهم، ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعواناً، يسدون الخلل، ويقيمون المَيل، ويدفعون عن الأرض الفساد. وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا، وسيوف دعوتنا، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونصرف نزول العظائم بمناصحتهم، ونُدافع ريب الزمان بعزائمهم، ونُزاحم رُكن الدهر ببصائرهم. فهم عِماد الأرض إذا أُرْجفت كُنُفها وحُتوف الأعداء إذا برزت صَفْحتُها، وحُصون الرعية إذا تضايقت الحال بها. قد مضت لهم وقائع صادقات، ومواطن صالحات، أخمدت نيران الفتن، وقصمت دواعى البدع، وأذلت رقاب الجبارين، ولم ينفكّوا كذلك ما جَرَوْا مع ريح دولتنا، وأقاموا فى ظل دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا، التي أعز الله بها ذلتهم، ورفع بها ضعتهم، وجعلهم بها أرباباً فى أقطار الأرضين، وملوكا على رقاب العالمين، بعد لباس الذل، وقناع الخوف، وإطباق البلاء، ومحالفة الأسى، وجهد البأس والضُرّ. فظاهِرْ عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم في حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حق طاعتهم، ووسيلة دالّتهم، وماتّة سابقتهم، وحُرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمسيئهم.

أي بني: ثم عليك العامة، فاستدع رضاها بالعدل عليها، واستجلب مودتها بالإنصاف لها، وتحسّن بذلك لربِّك، وتزين به فى عين رعيتك، واجعل عُمّال القَدْر، وولاةَ الحُجج مُقدّمة بين يدي عملك، ونصفة منك لرعيتك؛ وذلك أن تأمر قاضي كل بلد، وخيار أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم، فإن أحسن حمدت، وإن أساء عذرت، هؤلاء عمال القدر

وولاة الحجج. فلا يضيعن عليك مافي ذلك - إذا انتشر في الآفاق، وسبق إلى الأسماع - من انعقاد ألسنة المرجفين، وكبت قلوب الحاسدين، وإطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور. ولاينفكن في ظل كرامتك نازلا، وبعُرَى حبلك متعلقاً، رجلان: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح. والآخر له دين غير مغموز، وموضع غير مدخول، بصير بتقلب الكلام، وتصريف الرأي، وأنحاء الأدب، ووضع الكتب، عالم بحالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آداباً نافعة، وآثاراً باقية، من تجميل محاسنك، وتحسين أمرك؛ وتحلية ذكرك، فتستشيره في حربك، وتُدخله في أمرك؛ فرجل أصبتَه كذلك فهو يأوي إلى محلتي، ويرعى في خضرة جناني: ولاتدع أن تختار لك من فقهاء البلدان، وخيار الأمصار، أقواماً يكونون جيرانك وسمارك، وأهل مشاورتك فيما تورد، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر. فسر على بركة الله، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك؛ وهادياً ينطق بالحق لسانك.

وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد [١]

باب في مداراة العدو

في كتاب الهند: إن العدو الشديد الذى لاتقوى له لا ترد بأسه عنك بمثل الخشوع والخضوع له، كما أن الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بلينه وانثنائه معها.

وقالوا: ازفن[٢] للقرد في دولته.

---

(١) تذكر المصادر أن وفاة المهدي في ٢٢/١/١٦٩هـ انظر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣١٥ وانظر ابن قتيبة/المعارف ص٣٨٠ ولعل التاريخ فى آخر الكتاب هو تاريخ إعلانه وليس تاريخ كتابته والله أعلم.

(٢) ازفن: ارقص.

أخذه الشاعر فقال:

لاتعبدن صنماً فى فاقة وازفِنْ بلا حرج للقرد فى زمنه

وقال أحمد بن يوسف الكاتب: إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبلها.

وقال سابق البلويّ:

وداهن إذا ماخفت يوماً مسلطاً عليك ولن يحتال من لا يداهن

وقالت الحكماء: رأس العقل مغافصة [1] الفرصة عند إمكانها والانصراف عما لاسبيل إليه.

وقال الشاعر:

بلاء ليس يشبهه بلاء عداوة غير ذى حسب ودين
يبيحك منه عرضاً لم يصنه ويرتع منك فى عرض مصون

التحفظ من العدو إن أبدى لك المودة

قالت الحكماء: احذر الموتور ولاتطمئن إليه، وكن أشد ماتكون حذراً منه ألطف مايكون مداخلة لك. فإنما السلامة من العدو بتباعدك منه، وانقباضك عنه؛ وعند الأنس إليه والثقة به تمكنه من مقاتلك.

وقالوا: لاتطمئن إلى العدو إن أبدى لك المقاربة، وإن بسط لك وجهه، وخفض لك جناحه، فإنه يتربص بك الدوائر، ويضمر لك الغوائل، ولايرتجى صلاحاً إلا في فسادك، ولارفعة إلا بسقوط جاهك.

كما قال الأخطل:

بنى أمية إنى ناصحٌ لكُم فلا يبيتنّ فيكم آمناً زُفرُ [2]
واتخذوه عدُوّاً إنّ شاهدَه وما تَغَيَّب من أخلاقه دَعَرُ [3]

(١) المغافصة: المفاجأة والأخذ على غرة.

(٢) هو زفر بن الحارث بن كلاب الكلابي، أخو بني نفيل بن عمرو بن كلاب.

(٣) الدعر: الفساد

إن الضغينـةَ تلقـاهـا وإن قَدُمت كالعُرّ[١] يكمُـن حينـاً ثم يَنْتَشِرُ

وفى كتـاب الهنـد: الحـازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر المواثبة إن قرب، والمعاودة إن بعد: والكمين إن انكشف، والاستطراد إن وَلَّى، والكَرّة إن فر

وأوصى بعض الحكماء ملكا فقال: لايكونن العدو الذى كشف لك عن عداوته بأخوف عندك من الظنين الذى يستتر لك بمُخاتلته، فإنه ربما تخوف الرجل السّمَّ الذى هو أقتل الأشياء، وقتله الماء الذى هو محيي الأشياء؛ وربما تخوّف أن تقتله الملوك التى تملكه، ثم تقتله العبيد التى يملكها.

ولم يقل أحد فى العدو المندمل على العداوة؛ مثل قول الأخطل:

إن الضغينـة تلقاهـا وإن قدمت كالعُـرِّ يكمـن حينـاً ثم ينتشـر

وقد أشار الحسن بن هانئ إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول:

وابـن عـم لا يكاشفنـا قـد لبسنـاه على غمـره[٢]
كَمُـن الشنآن فيـه لنا ككمـون النـار فى حجـره[٣]

وشبهواالعدو إذا كان هذا فعله بالحية المطرقة. قال ابن أخت تأبط شرًّا:

مطـرق يرشـح موتـاً[٤] كما أطـرق أفعـى ينفث السّمّ صلّ

وقال عبد الله بن الزبير لمعاوية ـ ويقال: بل معاوية قالها لعبد الله بن الزبير ـ: مالى أراك تطرق إطراق الأفعوان فى أصول السَّخبر؟

وفى كتاب الهند: إذا أحدث لك العدو صداقة لعلة ألجأته إليك فمع ذهاب العلة رجوع العداوة، كالماء تسخنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً: والشجرة المرة لو طليتها بالعسل لم تثمر إلا مرًّا.

---

(١) العر: الجرب.

(٢) الغمر: الحقد.

(٣) يريد حجر القادح.

(٤) الرشح: العرق. والنفث كالقذف. والصل: من صفة الأفعى؛ وكل خبيث يقال له: صل أصلا.

وقال دريد بن الصمة:

وما تخفى الضغينة حيث كانت ولا النظر المريض من الصحيح

وقال زهير:

وما يكُ فى صديق أو عدُوٍّ تُخْبِرَك العيونُ عن القلوب

وقيل لزياد: ماالسرور؟ قال: من طال فى العافية والكفاية عمره، حتى يرى فى عدوه مايسره.